

الحيوان

الجاحظ


الحيوان
الجاحظ


عيون النثر العربي القديم


الحيوان
الجاحظ

PJ7745.J3 H39 2014
جاحظ، ت. 868 او9 .
كتاب الحيوان/ أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ؛ إعداد: خليل الشيخ. ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دارالكتب الوطنية، 2014.
ص. ؛ سم.-(سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 5 – 359 – 17 – 9948 – 978
1. الحيوان في الأدب العربي. 2. الأدب العربي -- العصر العباسي الأول. 3. الأدب العربي — مختارات. أ. شيخ، خليل. ب. العنوان. ج.السلسلة.

إعداد:
خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط
محمد مندي





الطبعة الأولى 1435هـ 2014م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

المقدمة

ليس من المبالغة في شيءٍ أنْ يُقال إنّ كتاب "الحيوان" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255 -هجرية) واحدٌ من الموسوعات العلميّة التي عرفها القرن الثالث الهجري، وهو كتابٌ يكشف بوضوحٍ عن ثقافة الجاحظ الواسعة وقراءاته التي لم تكن تعرف الحدود. فكتاب "الحيوان" يحوي طائفةً صالحةً من المعارف الطبيعيّة والقضايا الفلسفية والكلاميّة والدينيّة، وكثيرٍ من المسائل الجغرافية، وخصائص البلدان، وتأثير البيئة في الحيوان والنبات والبشر، إضافةً لمسائل طبيّة وعلميّة. ولا غرو أنْ يُسمّي الجاحظ كتابه الحيوان؛ لأنَّه أراد تصوير المخلوقات التي تسري الحياة في عروقها.

ألّف الجاحظ كتابه هذا حوالي سنة 247 هجرية، وقد تقدّمت به السنّ وأُصيب بالفالج. وأهداه للوزير محمد بن عبد الملك الزيّات.

وصف الجاحظ ما بَذَله من جهد في تأليف كتابه هذا، فقال: "وقد صادف هذا الكتابُ منّي حالاتٍ تمنعُ من بلوغ الإرادة فيهِ، أوَّلُ ذلك العِلَّة الشديدة، والثانية قلّة الأعوان، والثالثة طولُ الكِتاب، والرابعة أنّي لو تكلّفت كتابًا في طوله، وعدَدِ ألْفاظِهِ ومعانيهِ، ثمَّ كان من كُتب العَرَض والجوهر، والطّفرة، والتولد، والمداخَلة، والغرائز، لكان أسهَلَ وأقصَرَ أيامًا، وأسْرَعَ فراغًا؛ لأني كنتُ لا أفزَعُ فيه إلى تلقُّط الأشعار، وتتبُّع الأمثال، واستخراج الآي من القرآنِ، والحجَج من الرِّواية، مع تفرُّقِ هذه الأمورِ في الكتب. وتباعُدِ ما بين الأشكال، فإنْ وَجَدْتَ فيه خلَلًا من اضطرابِ لفظٍ، ومن سوءِ

تأليف، أو من تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء في غير موضعه، فلا تنكِرْ بعدَ أنْ صوَّرتُ عندك حالي التي ابتدأتُ عليها كَتابي".

اتَّكأ الجاحظ على القرآن الكريم، والحديث النبوي، والشِّعر العربي، ولا سيّما شعر البادية والأعراب، كما اتَّكأ على كتاب الحيوان لأرسطو الذي نقل منه نصوصاً نوعيَّة. والكتاب يُبيّن في مجموعه فكر المعتزلة الذي كان الجاحظ يَصْدُر عنه، ويسعى إلى الدِّفاع عنه والانتصار له.

تحدث الجاحظ في الجزء الأول من " الحيوان" عن أهميّة الكتب والقراءة موضحًا في تلك الأثناء ما ألّفه من كتب، ومبيِّنا أهميتها وطبيعتها، ومدافعًا عن منظوره الذي اختاره في كلّ كتاب منها، ولا عَجَبَ في ذلك فقد كان الجاحظ مولَعًا بالقراءة منذ نُعومة أظفاره، حتى قيل إنّه كان يكتري دكاكين الورّاقين، ويبيت فيها للقراءة والتأمل.

يتوقّف الجاحظ في كتابه عند الحيوانات في البحر والبر، فيذكر الأسماك، ويُشير إلى كلب البحر والدلفين والضفادع والتّمساح والسرطان، كما يُشير إلى الكلاب بأنواعها المختلفة، ككلاب الصيد والزرع والماشية والبيوت، ويتحدَّث عن الديكة، ويوازن بينها وبين الكلاب، ويتحدّث عن بيض الطّيور ووضعه وحضنه. وفي أثناء حديثه العلمي، يورِد الجاحظ آراءً نقديةً في غاية الأهميّة عن الشعر العربي والبلاغة، كما يتوقف بعمقٍ عند ماهيّة الشِّعر.

يُعدُّ الجاحظ مِن أقدم النّقاد العرب الذين أثاروا قضية الإبداع إثارة واسعة؛ فقد نوّه باللفظ ورفع من شأنه كثيرًا، وكان يغضّ من شأن المعاني؛ فالمعاني عنده مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي، والقروي والمدني، كما أنَّ المعاني مبسوطةٌ إلى غير غايةٍ وممتدةٌ إلى غير نهايةٍ، والجاحظ من خلال قوله هذا يسقط المعاني إسقاطًا، ولا يعطيها قيمةً فنيةً، وإنما الشأن عنده: في إقامة الوزن، وتَخيّر الألفاظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطّبع، وجودة الصياغة. فالشعر صناعةٌ، وضربٌ من النّسج، وجنسٌ من التصوير.

مثلما تَوقَّف الجاحظ عند ترجمة الشِّعر، مبيِّنا أنّ فضيلة الشِّعر مقصورةٌ على العرب وعلى من تكلَّم بلسانهم، وأنّ الشِّعر لا يترجم، ولا يجوز عليه النقل.

لقد توقّف كثيرون عند هذا الكتاب من زوايا علميِّة ونقديِّة وكلاميِّة وحكائيِّة، وما يزال مجال القول فيه ذا سَعَة. فالكتاب يَكشِف عمّا حصّله الجاحظ في حياته من معرفة، بدأها في حلقات العِلم في المساجد، وفي الحلقات الخاصة بشيوخ العِلم، وَوسَّع آفاقها في القراءة المتواصلة. وقد حَظِي الكِتاب بعدة طبعات لعلّ طبعة عبد السلام هارون التي صدرت في سبعة مجلدات تكون أوفاها.

ولعلّ أجمل ما قيل في كتاب الحيوان ما ذكره أبو حيّان التّوحيدي، الذي يضارعه في العبقرية والبيان، حيث قال: "كتبه رياضٌ زاهرةٌ، ورسائله أفنانٌ مثمرةٌ، ما نازعه منازعٌ إلّا فاقه. الخلفاء تعرفه، والأمراء تصافيه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصّة تُسْلّم له، والعامّة تُحبّه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعِلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنَّظْم، وبين الذكاء والفهم. طال

عمره، وفشت حِكمته، وظهرتْ خلته، ووطئ الرجال عقبه (أي اتبعوا واقتفوا أثره)، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد أوتي الحِكمة وفَصْل الخطاب".

حوار الجاحظ مع القارئ [1]

جَنَّبَكَ اللهُ الشُّبْهة، وعَصَمك من الحَيرة، وجَعَل بينك وبين المعرفة نسبًا، وبين الصّدق سَبَبًا، وحبَّب إليك التثبُّت، وزيَّن في عينكَ الإنصاف، وأذاقكَ حلاوةَ التّقوى، وأشعرَ قلبك عِزَّ الحقّ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقين، وطرد عنك ذلَّ اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلَّة، وما في الجهل من القِلَّة.

ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ في أمرك، وأدلَّ عَلَى مقدار وزنك، وعلى الحال التي وضعْتَ نفسك فيها، ووَسمتَ عرضَك بها، ورضيتها لدِينِك حظًّا، ولمَروءتك شِكْلًا، فقد انتهى إليَّ مَيلُكَ على أبي إسحاق الموصليّ، وحَملُك عليه، وطعنُك على المُغنّي مَعْبَدٍ. ثم عبتَني بكتاب حيل اللصوص، وكتاب غِشّ الصناعات، وعبتَني بكتاب المُلَح والطُّرفَ، وما حَرَّ من النوادر وبَرُد، وما عاد بارده حارًّا لفَرْط برده حتى أمتعَ بأكثرَ من إمتاع الحارّ، وعبتني بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضَتِهم للسُّمَحاء، والقولِ في الفرق بين الصدق إذا كان ضارًّا في العاجل، والكذب إذا كان نافعًا في الآجِل، ولِمَ جُعل الصدقُ أبدًا محمودًا، والكذبُ أبدًا مذمومًا، والفرقِ بين الغَيرة وإضاعة الْحُرمة، وبين الإفراط في الحميّة والأَنَفَة، وبين التقصير في حفظ حقِّ الحرمة، وقلّة الاكتراثِ لسوءِ القالَة، وهل الغيرة اكتساب وعادة، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة، ولبعض التزيُّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك في طباع الحريّة، وحقيقة الجوهريّة، ما كانت العقولُ سليمةً، والآفاتُ منفيَّةً، والأخلاطُ معتدلةً.

وعبتَني بكتاب الصُّرَحاء والهُجَناء[2]، ومفاخرة السُّودان والحمران، وموازنةِ ما بين حقِّ الخؤولة والعمومة، وعبتَني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرقِ ما بين الذكور والإناث، وفي أيِّ موضعٍ يَغلُبْن ويفضُلْن، وفي أيّ موضعٍ يكنَّ المغلوباتِ والمفضولات، ونصيب أيِّهما في الولد أوفرَ، وفي أيِّ موضع يكون حقّهنّ أوجب، وأيّ عملٍ هو بهنَّ أليق، وأيّ صناعةٍ هنّ فيها أبلغ.

وعبتَني بكتاب القحطانيّة، وكتاب العدنانيّة في الردّ على القحطانية، وزعمتَ أنَّي تجاوزتُ فيه حدَّ الحميّة[3] إلى حدِّ العصبيَّة، وأنِّي لم أصل إلى تفضيل العدنانيّة إلّا بتنقُّص القحطانيّة. وعبتَني بكتابِ العرب والموالي، وزعمتَ أنِّي بَخست الموالِيَ حقوقَهم، كما أنِّي أعطيتُ العربَ ما ليس لهم.
وعبتَني بكتاب العرب والعجم، وزعمتَ أنّ القولَ في فرقِ ما بين العرب والعجم، هو القولُ في فرقِ ما بين الموالي والعرب، ونسبتَني إلى التكرار والتردادِ، وإلى التكثير، والجهل بما في المُعَاد من الخَطَل، وحَمْل الناسِ المؤن.

وعبتَني بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا في جهة العِلَّة مع اتّفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبَّاد البِدَدَة[4]، والمتمسّكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة؛ أشدَّ الديّانين إلْفًا لما دانوا به، وشغفًا بِمَا تعبَّدوا له، وأظهَرَهم جِدًّا، وأشدَّهم على من خالفهم ضِغناً، وبما دانوا ضِنًّا، وما الفرق بين البُدِّ والوثَن، وما الفَرق بين الوثَن والصنم، وما الفَرق بين الدُّمية والجثَّة، ولِمَ صوَّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صوَرَ عظمائهم ورجالِ دعوتهم، ولم تأنَّقوا في التصوير، وتجوَّدوا في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوَّليَّة تلك العبادات، وكيف اقترفتْ تلك النِّحل، ومن أيّ شكلٍ كانت خُدَع تلك السَّدَنة، وكيف لم يزالوا أكثرَ الأصنافِ عددًا، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناسَ المختلفة.

وعبتني بكتاب المعادن، والقولِ في جواهر الأرض، وفي اختلاف أجناس الفِلِزِّ والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها، ويُبطئ عن بعضها؛ وكيف صار بعضُ الألوان يَصبُغ ولا ينصبُغ، وبعضها يَنْصَبِغُ ولا يصْبُغ، وبعضها يصبُغ وينصبِغ، وما القولُ في الإكسير والتلطيف.

وعبتَني بكتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس، وكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجنّ، وكيف القولُ فيَّ معرفة الهدهد واستطاعة العفريت، وفي الذي كان عنده عِلْمٌ من الكتاب، وما ذلك العلم، وما تأويل قولهم: كان عنده اسم الله الأعظم.

وعبتني بكتاب الأوفاق[5] والرياضات، وما القولُ في الأرزاق والانفاقات، وكيف أسباب التثمير والترقيح[6]، وكيف يَجتلب التجار الحُرَفاء، وكيف الاحتيال للودائع، وكيف التسبُّب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم حسن التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن؛ وكيف ذكرنا غشَّ الصناعات والتجارات، وكيف التسبُّب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما موَّهوا؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله. وعبتني برسائلي، وبكلّ ما كتبت به إلى إخواني وخُلَطائي، من مَزْحٍ وجِدٍّ، ومن

إفصاحٍ وتعريضٍ، ومن تغافلٍ وتوقيفٍ، ومن هجاءٍ لا يزال مِيسَمه باقيًا، ومديحٍ لا يزال أثرهُ ناميًا، ومن مُلَحٍ تُضحِكُ، ومواعظَ تُبكي.

وعبتَني برسائلي الهاشميّات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيَها، وتصويري لها في أحسَن صورة، وإظهاري لها في أتمِّ حلية. وزعمتَ أنّي قد خرجتُ بذلك من حدِّ المعتزلة إلى حدِّ الزيديّة، ومن حدّ الاعتدال في التشيُّع والاقتصاد فيه، إلى حدِّ السرف والإفراط فيه. وزعمتَ أنّ في أصل القضيّة والذي جَرَتْ عليه العادة، أنَّ كلَّ كبيرٍ فأوَّلُه صغير، وأنَّ كلَّ كثيرٍ فإنما هو قليلٌ جُمع مِنْ قليلٍ، وأنشدت قول الراجز:

قد يَلحَق الصغيرُ بالجليلِ

وإنّما القَرْمُ من الأَفِيل[7]

وسُحُقُ النخلِ من الفَسيلِ

وأنشدتَ قول الشاعر:

ربَّ كبيرٍ هاجَه صغيرُ

وفي البُحور تَغَرق البحورُ

وقال يزيدُ بن الحكم:

فاعلم بُنَيّ فإنّه

بالعِلم يَنتفِع العليم

إنّ الأمورَ دقيقُها

مما يَهيج له العظيم

وقال الآخر:

صار جِدًّا ما مزحتَ به

ربَّ جِدٍّ سَاقه اللعبُ

وتقول العرب: "العَصَا من العُصَيَّة، ولا تلد الحيَّة إلا حَيَّةٌ".

وعبتَ كتابي في خَلْق القرآن، كما عبتَ كتابي في الردِّ على المشبِّهة؛ وعِبْتَ كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام، كما عبتَ كتابي في الاحتجاج لِنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه. وعبتَ معارضتي للزيديّة وتفضيلي الاعتزال على كلِّ نِحْلة. كما عَبتَ كتابي في الوعدِ والوعيد، وكتابي على النصارى واليهود. ثمَّ عبتَ جملة كتبي في المعرفة، والتمستَ تهجينَها بكلِّ حيلة، وصغَّرتَ من شأنها، وحطَطتَ من قَدْرها، واعترضتَ على ناسخيها والمنتفعين بها، فعبتَ كتاب الجوابات، وكتاب المسائل، وكتابَ أصحابِ الإلهام، وكتابَ الحجَّة في تَثْبيت النبوّة، وكتابَ الأخبار.

ثمّ قصدتَ إلى كتابي هذا بالتصغير لقَدْره، والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقير لمعانيه، فزَرَيت على نحْتِهِ وسَبكه، كما زَرَيت على معناهُ ولفظِه، ثمّ طعنتَ في الغرض الذي إليه نزعْنا، والغاية التي إليها قَصَدنا. على أنّه كتابٌ معناهُ أنبَهُ من اسمِهِ، وحقيقتهُ آنَقُ من لفظه، وهو كتابٌ يحتاجُ إليه المتوسِّط العامّيّ، كما يحتاجُ إليه العالِم الخاصّي، ويحتاج إليه الرَّيِّض[8] كما يحتاج إليه الحاذق.

أمّا الرّيض فللتعلُّم والدرْبة، وللترتيب والرياضة، وللتمرينِ وتمْكين العادة؛ إذْ كان جليلُه يتقدم دقيقه، وإذْ كانت مقدِّماته مرتبةً وطبقاتُ معانيه منزّلة. وأمّا الحاذقُ فلكفايةِ المؤنة؛ لأنّ كلَّ من التقط كتابًا جامعًا، وبابًا من أمَّهات العلم مجموعًا، كان له غُنْمه، وعلى مؤلّفه غُرمُه، وكان له نفعُه، وعلى صاحِبِه كَدُّه، مع تعرُّضِهِ لمطاعِن البُغَاة، ولاعتراض المنافِسِين، ومع عرْضِهِ عقلَه المكدودَ على العقولِ الفارغة، ومعانيه على الجهابِذة، وتحكيمِهِ فيه المتأوِّلين والحسَدَة.

ومتى ظَفِر بمثله صاحبُ علم، أو هجَمَ عليه طالبُ فقه، وهو وادعٌ رافِه، ومؤلِّفه مُتَعبٌ مكدود، فقد كُفي مَؤُونَة جمعه وخزنِه، وطلبِهِ وتتبُّعِهِ، وأغناه ذلك عن طولِ التفكير، واستنفادِ العمر. وأدرَك أقصى حاجتِه وهو مجتمعُ القُوَّة. وعلى أنّ له عند ذلك أنْ يجعَلَ هُجومَه عليه من التوفيق، وظفَره به بابًا من التسديد.

وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبةُ الأُمم، وتتشابَه فيه العُرْبُ والعَجَم؛ لأنّه، وإنْ كانَ عَرَبيًّا أعرابيًّا، وإسلاميًّا جَماعيًّا، فقد أخَذَ من طُرَفِ الفلسفة، وجمع بين معرفةِ السماع وعلْم التجربة، وأشرَكَ بين علم الكتاب والسُّنة، وبينَ وِجْدان الحاسَّة، وإحساس الغريزة. ويشتهيه الفِتيانَ كما تَشتهيه الشيُوخ، ويشتهيه الفاتِكُ كما يشتهيه الناسِك، ويشتهيه اللاعبُ ذو اللّهوِ كما يشتهيه المجدّ ذو الْحَزم، ويشتهيه الغُفْلُ كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبيُّ كما يشتهيه الفَطِن.

وعبتَني بكتاب العباسية، فهلا عبتني بحكايةِ مقالةِ مَن أبى وجوبَ الإمامة، ومَنْ يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أنّ تَرْكَ النَّاس سُدًى بلا قيِّم أردُّ عليهم، وهملًا بلا راع أربحُ لهم، وأجدَرُ أنْ يجمع لهم ذلك بين سلامَةِ العاجل، وغنيمة الآجل، وأنَّ تَرْكَهم نَشَرًا لا نظامَ لهم، أبعدُ من المفاسِد، وأجمعُ لهم عَلَى المراشد!! بل ليس ذلك بك، ولكنَّه بهرَكَ ما سمعتَ، وملأ صدرَك الذي قرأت، فلم تتّجه للحجّة وهي لك معرضة، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية، ولم تَعرِف بابَ المخرج؛ إذ جهلتَ بابَ المدخَل، ولم تعرِف المصادر؛ إذ جهلتَ الموارد.

رأيتَ أنَّ سبَّ الأولياء أشفى لدائك، وأبلغَ في شفاء سَقَمك، ورأيتَ أنّ إرسالَ اللسان أحضَرُ لَذَّةً، وأبعدُ من النَّصَب، ومِن إطالة الفكرة، ومن الاختلافِ إلى أرباب هذه الصناعة.

ولو كنتَ فطِنت لعجْزك، ووصَلْتَ نقصَك بتمام غيرك، واستكفَيْتَ مَن هو موقوفٌ على كفايةِ مثلك، وحَبيسٌ على تقويم أشباهك كان ذلك أزينَ في العاجِل، وأحقَّ بالمثُوبة في الآجل، وكنتَ إنْ أخطأتكَ الغنيمةُ لم تُخْطِك السلامة، وقد سَلِم عليك المخالفُ بقَدْر ما ابتُلِي به منك الموافِق. وعلى أنَّه لم يُبتَل منك إلا بقدْر ما ألزمتَه من مُؤْنَةِ تثقيفك، والتشاغُلِ بتقويمك. وهل كنتُ في ذلك إلّا كما قال العربي: "هل يَضُرُّ السَّحابَ نَبْحُ الكلابِ". وإلّا كما قال الشاعر:

هل يَضُرُّ البحرَ أمسى زَاخِرًا

أَنْ رَمَى فيهِ غُلامٌ بحَجَرْ

وهل حالُنا في ذلك إلّا كما قال الشاعر:

ما ضرَّ تغلِبَ وائلٍ أَهجَوْتَها

أم بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وما أشكُّ أنَّكَ قد جعلت طول إعراضنا عنك مَطِيَّةً لك، ووجَّهتَ حِلمَنا عنك إلى الخوف منك، ولو شئتَ أن نعارضَك لعارضناك في القول بما هو أقبحُ أثرًا وأبقى وَسْما، وأصدقُ قِيلًا، وأعدلُ شاهدًا. وليس كلُّ مَن تَرَكَ المعارَضَة فقد صفح، كما أنَّه ليس من عارَضَ فقد انتصرَ، وقد قال الشاعر قولًا، إنْ فهمتَه فقد كفَيتَنا مَؤُونَةَ المُعَارَضَة، وكفيتَ نفسَك لزومَ العارِ، وهو قوله:

إنْ كنتَ لا ترهَبُ ذمِّي لِمَا

تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عن الجاهِلِ

فاخشَ سُكُوتي إذْ أنا منصتٌ

فيكَ لمسموعِ خَنَا القائلِ

فالسامعُ الذمِّ شريكٌ لهُ

ومُطعِمُ المأكولِ كالآكِلِ

مقالةُ السُّوء إلى أهلها

أسرَعُ من مُنْحَدرٍ سائلِ

ومَن دعا الناسَ إلى ذمِّه

ذمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

فلا تَهِجْ إنْ كنتَ ذا إربَةٍ[9]

حرْبَ أخي التجربةِ العاقلِ

فإنَّ ذا العَقل إذا هِجْتَه

هجتَ به ذا خَبَلٍ خابلِ

تُبْصرُ في عاجلِ شَدَّاته

عليك غِبَّ[10] الضرَر الآجلِ

وقد يقال: إنّ العفوَ يُفسد من اللئيم بقَدْر إصلاحه من الكريم، وقد قال الشاعر:

والعفو عندَ لبيبِ القومِ موعظةٌ

وبعضهُ لسفيهِ القومِ تدريبُ

فإنْ كنّا أسأنا في هذا التقريعِ، فالذي لم يأخُذ فينا بحُكم القرآنِ، ولا بأدَب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يَفزَع إلى ما في الفِطَن الصحيحة، وإلى ما توجبهُ المقاييسُ المطَّردةُ، والأمثالُ المضرُوبة، والأشعار السائرة؛ أولَى بالإساءَة وأحقُّ باللائمة، قال الله -عزّ وجلَ-: (وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخْرى)، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: "لا يَّجْنِ يمينُكَ على شِمَالك".

وهذا حكمُ الله تعالى وآدابُ رسوله والذي أُنْزِلَ به الكتابُ ودلَّ عليه من حُجَج العقول.

ماهيّة كتاب الحيوان

وليس هذا الكتابُ في إيجاب الوَعد والوعيد فيعترض عليه المُرْجئُ، ولا في تفضيل عليٍّ فينصِب له العثمانيّ[11]، ولا هو في تصويب الحكمَين، فيتسخَّطه الخارجيّ، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضَه من يُخالف التقديم، ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحبُ الأجسام، ولا هو في تفضيل البصرة على الكوفة، ومكة على المدينة، والشّام على الجزيرة.

ولا في تفضيل العجَم على العرب، وعدنانَ على قَحْطان، وعمرو على واصلٍ، فيردّ بذلك الهذيلي عَلَى النّظّامي، ولا هو في تفضيل مالكٍ على أبي حنيفة؛ ولا هو في تفضيل امرئ القيس على النّابغة، وعامر بن الطفيل على عمرو بن معد يكرب، وعباد بن الحصين على عبيد الله بن الحُرّ، ولا في تفضيل ابن سُريج على الغَريض، ولا في تفضيل سيبويهِ على الكسائيّ، ولا في تفضيل الجعفريِّ على العقيليّ، ولا في تفضيل حلم الأحنف على حِلم معاوية، وتفضيل قَتادة على الزّهري، فإنَّ لكلِّ صِنفٍ من هذه الأصناف شيعةً، ولكلِّ رجل من هؤلاء الرجال جُندًا، وعددًا يخاصمون عنهم. وسفهاؤهم المتسرعون منهم كثير، وعلماؤهم قليل، وأنصاف علمائهم أقلّ.

ولا تنكر هذا، أنا رأيت رجُلين بالبصرة على باب مُويس بن عِمران، تنازعا في العنب النَّيروزيِّ والرازقيِّ، فجرى بينهما اللعين حتى تواثبا، فقطع الكوفيُّ إصبع البصريِّ، وفقأ البصريُّ عين

الكوفيّ، ثم لم ألبَث إلا يسيرًا حتى رأيتهما متصافيين متنادمين لم يقعا قط على مقدار ما يُغضب مِن مقدار ما يُرضي، فكيف يقَعَانِ على مقادير طبقات الغضب والرضا؟! والله المستعان.

وقد ترك هذا الجمهورُ الأكبر، والسَّوَادُ الأعظمُ، التوقفَ عند الشبهة، والتثبُّتَ عند الحكومة جانبًا، وأضربوا عنه صَفْحًا، فليس إلّا لا أو نعم. إلّا أنَّ قولهم "لا" موصولٌ منهم بالغضب، وقولهم "نعم" موصولٌ منهم بالرِّضا. وقد عُزلت الحرِّيَّة جانبًا، ومات ذِكرُ الحلال والحرام، ورُفض ذكر القَبيحِ والحسن.

قال عَمرو بن الحارث: "كنّا نُبغض من الرِّجال ذا الرياء والنَّفَج[12]، ونحن اليوم نَتمنّاهما".

قد كتبْنا من كتاب الحيوان سبعة أجزاء، وإنما اعتمدنا في هذه الكتب على الإخبار عمّا في أجناس الحيوان من الحججِ المتظاهِرة، وعلى الأدلة المترادفة، وعلى التنبيه على ما جلَّلها الله تعالى من البرهانات التي لا تُعرف حقائقُها إلا بالفكرة، وغشَّاها من العلامات التي لا تُنال منافعها إلا بالعبرة، وكيف فرَّق فيها من الحِكمِ العجيبة، والصنعة اللطيفة، وما ألهمها من المعرفة، وحشاها من الجُبن والجرأة، وبصَّرها بما يُقيتُها ويُعيشها، وأشعرها من الفِطنة لما يحاول منها عدوُّها، ليكونَ ذلك سببًا للحذر، ويكونَ حذرُها سببا للحِراسة، وحراستُها سببًا للسلامة، حتى تجاوزت في ذلك مقدارَ حراسة المجرِّب من الناس، والخائفِ المطلوب من أهل الاستطاعة والروِيَّة، كالذي يروى من تحارُس الغرانيق والكراكي، وأشكالٍ من ذلك كثيرة.

حتى صار الناسُ لا يضربون المثلَ إلّا بها، ولا يذمّون ولا يمدحون إلّا بما يجدون في أصناف الوَحْش من الطَّير وغير ذلك، فقالوا: أحْذَرُ من عقْعَق، وأحذَرُ من غراب، وأحذر من عصفور، وأَسْمَعُ من فَرْخ العقاب، وأسمعُ من قُرادٍ، وأسمعُ من فَرَس، وأهدى من قطاة، وأهدى من حمام، وأهدَى من جَمل، وأزهى من غراب، وأزهى من ذباب، وأجرأ من اللّيث، وأكسب من الذِّئب، وأخدع من ضَبّ، وأَرْوَغ من ثعلب، وأعقّ من ضَبّ، وأبرّ من هِرَّة، وأَسْرع من سِمْع[13]، وأَظلم من حيَّة، وأظلم من وَرَلٍ[14]، وأكذبُ من فاخِتة[15]، وأصدق من قطاة، وأحزَم من فَرْخ العُقاب.

ونبَّهنَا -تعالى وعزّ- على هذه المناسبة، وعلى هذه المشاركة، وامتَحَن ما عندنا بتقديمها علينا في بعض الأمور، وتقديمنا عليها في أكثر الأمور، وأراد بذلك ألّا يُخْلِينَا من حُجةٍ، ومن النّظر إلى عبرةٍ، وإلى ما يعود عند الفكرة موعظة.

وكما كره لنا من السّهْو والإغفال، ومن البطالة والإهمال، في كلِّ أحوالنا لا تُفْتَح أبصارُنا إلّا وهي واقعةٌ على ضربٍ من الدّلالة، وعلى شكل من أشكال البرهانات، وجعل ظاهرَ ما فيها من الآيات داعيًا إلى التفكير فيها، وجعل ما استخزنها من أصناف الأعاجيب يُعرف بالتكشِيف عنها، فمنها ظاهرٌ يدعوك إلى نفسه، ويشير إلى ما فيه، ومنها باطنٌ يَزيدك بالأمور ثقةً إذا أفضيتَ إلى حقيقته، لتعلم أنَّك مع فضيلة عقلِك، وتصرُّف استطاعتِك إذا ظهر عجزُك عن عمِل ما هو أعجز منك أنّ الذي فضَّلك عليه بالاستطاعة والمنطق، هو الذي فضَّله عليك بضروبٍ أُخَر.

وأنكما ميسَّران لما خلِقتَما له، ومُصَرَّفان لما سُخِّرْتما له، وأن الذي يعجِز عن صَنعة السُّرْفة، وعن تدبير العنكبوت في قلتهما ومَهانتهما وضُعفهما وصِغَر جُرمهما، لا ينبغي أنْ يتكبّر في الأرض، ولا يمشِيَ الخُيَلاء، ولا يتهكَّمَ في القول، ولا يتألّى ولا يستأمر. وليعلم أنَّ عقله منيحةٌ من ربّه، وأنّ استطاعتَه عاريَّةٌ عنده، وأنّه إنّما يستبقي النِّعمة بإدامة الشُّكر، والتعرُّض لسلبها بإضاعة الشكر.

ثم حبَّب إليها طلب الذَّرء والسِّفادِ الذي يكون مَجْلَبَةً للذَّرْء[16]، وحبَّب إليها أولادَها ونجلَها وذَرأها ونسلها، حتى قالوا: أكرم الإبل أشدُّها حنينًا، وأكرم الصَّفايا أشدُّها حبًّا لأولادها. وزَاوَجَ بين أكثرها وجعل تألّفها مَع بعضها من الطّروقة[17] إذا لم يكن الزِّواج لها خلقاً، وجعل إلف العِرْس لها عادةً، وقوّاها على المسافَدة[18]، لتتمَّ النعمة، وتعظُم المنّة، وألهمها المبالغةَ في التربية، وحُسْنَ التعبُّد، وشدَّة التفقُّد، وسوَّى في ذلك بين الجِنس الذي يُلَقِّم أولاده تلقيمًا، وبين الذي يُرْضِعُها إرضاعًا، وبين الذي يزقُّها زَقًّا، وبين ما يحضُن وما لا يحضن.

ومنها ما أخرجها من أرحام البَيض وأرحام البطون كاسيةً، ومنها ما أخرجها كاسيةً كاسِبةً، وأمتَعَها وألذَّها، وجعلها نِعمةً على عباده، وامتحانًا لشكرهم، وزيادةً في معرفتهم، وجِلاءً لما يتراكم من الجهل على قلوبهم.

فليس لهذا الكتاب ضدٌّ من جميع مَن يشهد الشهادة، ويصلِّي إلى القبلة، ويأكل الذَّبيحة، ولا ضدٌّ من جميع الملحدين ممَّن لا يقرُّ بالبعث، وينتحل الشرائع، وإن أَلْحَدَ في ذلك وزاد ونقص، إلا الدَّهريَّ، فإنّ الذي ينفي الربوبيَّة، ويُحيل الأمرَ والنَّهيَ، ويُنكر جواز الرِّسالة، ويجعل الطِّينة قديمة، ويَجحد الثوابَ والعِقاب، ولا يعرف الحلالَ والحرام، ولا يُقرُّ بأنّ في جميع العالَم برهانًا يدلّ عَلى صانعٍ ومصنوعٍ، وخالقٍ ومخلوقٍ، ويجعلُ الفلك الذي لا يعرف نفسه من غيره، ولا يفصل بين الحديث والقديم، وبين المحسن والمسيء، ولا يستطيع الزيادةَ في حركته، ولا النُّقصانَ مِن دورانه، ولا مُعاقبةً للسُّكون بالحركة، ولا الوقوفَ طرْفَةَ عين، ولا الانحرافَ عن الجهة؛ هو الذي يكون به جميع الإبرام والنَّقض، ودقيقُ الأمور وجليلها، وهذه الحِكمُ العجيبة، والتدابير المتْقنة، والتأليف البديع، والتَّركيب الحكيم، على حسابٍ معلوم، ونسَق معروف، على غايةٍ من دقائق الحكمة وإحكام الصَّنعة.

ولا ينبغي لهذا الدهريِّ أيضًا أنْ يعرض لكتابنا هذا، وإنْ دلَّ على خلافِ مذهبه، ودعا إلى خِلافِ اعتقاده، لأنّ الدَّهريّ ليس يرى أنَّ في الأرض دينًا أو نِحلةً أو شريعةً أو مِلَّة، ولا يرى للحلال حُرْمَةً ولا يعرفه، ولا للحرام نهايةً ولا يعرفه، ولا يتوقَّع العقابَ على الإساءة، ولا يترجّى الثواب على الإحسان.

وإنما الصواب عنده والحقُّ في حُكْمه، أنّه والبهيمةَ سِيّان، وأنّه والسَّبُعَ سِيّان، ليس القبيحُ عنده إلّا ما خالف هواه، وليس الحسَن عنده إلّا ما وافق هواه، وأنّ مدار الأمر على الإخفاق والدَّرك، وعلى اللذّة والألم، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة، وإنْ قتلَ ألفَ إنسانٍ صالحٍ لِمَنالة درهم رديء. فهذا الدهريّ لا يخاف إنْ ترك الطَّعْن على جميع الكتب عقابًا ولا لَائِمة، ولا عذابا دائمًا ولا منقطعًا، ولا يرجو إنْ ذمّها ونَصَب لها ثوابًا في عاجلٍ ولا آجلٍ. فالواجبُ أنْ يسلم هذا الكتابُ على جميع البريَّة،

إذا كان موضِعُه على هذه الصِّفة، ومُجراه إلى هذه الغاية. والله تعالى الكافي الموفَق بلطفه وتأييده، إنّه سميع قريب، فعال لما يريد.

وما أكثرَ ما يَعْرِض في وقت إكبابي على هذا الكتاب، وإطالتي الكلام، وإطنابي في القول؛ بيتُ ابن هَرْمة، حيث يقول:

إنَّ الحديثَ تغرّ القَوْمَ خَلوتُه

حَتى يَلَجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

وأنَا أعوذ بالله أنْ أُغَرَّ من نفسي، عند غَيبةِ خَصمي، وتصفُّح العلماء لكلامي، فإني أعلم أنّ فِتنةَ اللسانِ والقلم، أشدّ من فِتنة النساء، والحرص على المال.

وقد صادف هذا الكتابُ منّي حالاتٍ تَمنعُ من بلوغ الإرادة فيهِ، أوَّلُ ذلك العِلّة الشديدة، والثانية قلّة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أنّي لو تكلفت كتابًا في طوله، وعدَدِ ألفاظِهِ ومعانيهِ، ثمَّ كان من كتب العَرَض والجوهر، والطَّفرة[19]، والتولّد[20]، والمداخَلة[21]، والغرائز[22]، والتماسِّ[23] -لكان أسهَلَ وأقصَرَ أيامًا، وأسْرَعَ فراغًا؛ لأنّي كنتُ لا أفزَعُ فيه إلى تلقُّط الأشعار، وتتبُّع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجَج من الرِّواية، مع تفرُّقِ هذه الأمور في الكتب، وتباعُدِ ما بين الأشكال. فإنْ وَجَدْتَ فيه خللًا من اضطرابِ لفظٍ، ومن سوءِ تأليفٍ، أو من تقطيعِ نظامٍ، ومن وقوع الشيءِ في غير موضعه- فلا تنكِرْ، بعدَ أنْ صوَّرتُ عندك حالي التي ابتدأتُ عليها كتابي.

ولولا ما أرجو من عَوْنِ الله على إتمامه؛ إذْ كنتُ لم ألتمسْ به إلَّا إفهامَك مواقعَ الحجَج لله، وتصاريفَ تدبيره، والذي أوْدَعَ أصنافَ خلْقه من أصناف حكمته- لَمَا تعرَّضْتُ لهذا المكروه.

فإنْ نَظَرْتَ في هذا الكتاب، فانظُرْ فيه نظَرَ مَنْ يلتمس لصاحبه المخارِجَ، ولا يَذهَبُ مذهبَ التعنُّتِ، وَمَذْهَبَ مَنْ إذا رأى خيرًا كتَمَهُ، وإذا رأى شَرًّا أذاعه.

وليعْلم منْ فَعَلَ ذلك أنَّه قد تعرَّض لبابٍ إن أُخِذَ بمثله، وتعَرِّض له في قوله وكتبه، أن ليس ذلك إلّا من سبيل العُقوبة، والأخْذ منه بالظّلامة. فلينظرْ فيه على مثال ما أدَّب الله به، وعرَّف كيف يكون النّظر والتفكير والاعتبار والتعليم؛ فإنّ الله -عزّ وجلّ- يقول: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ)(البقرة:63).

عناية العلماء بالمُلَح والفكاهات في كتبهم

وقلتَ: وما بالُ أهلِ العلم والنِّظر، وأصحابِ الفكرِ والعِبَر، وأربابِ النِّحَلِ، والعلماءِ وأهلِ البصر بمخارجِ المِلَل، وورثَةِ الأنبياء، وأعوانِ الخلفاء، يَكتُبُون كتبَ الظُّرَفاءِ والمُلَحَاء، وكُتب الفُرَّاغ والخُلَعاء، وكتبَ الملاهي والفُكَاهات، وكتبَ أصحابِ الخُصوماتِ، وكتبَ أصحابِ المِراءِ، وكُتبَ أصحاب العصبيَّةِ وحَمِيَّةِ الجاهليّة!! ألأنَّهُمْ لا يحاسِبون أنفسهم، ولا يُوازِنون بينَ ما عليهم ولهم.

فهلّا أمسكتَ -يَرْحَمُكَ الله- عَنْ عَيْبِها والطَّعْنِ عليها، وعن المَشُورَةِ والموعِظة، وعن تخويفِ ما في سوء العاقبةِ، إلى أنْ تبلغَ حالَ العلماء، ومراتبَ الأكْفاء؟!

فأمّا كتابُنا هذا، فسنذكرُ جُمْلَة المذاهب فيه، وسَنَأتِي بعد ذلك على التفسير، ولَعلَّ رأيَك عند ذلك أنْ يتحوَّل، وقولَك أن يتبدّل، فتُثْبِتَ أو تكونَ قد أخذتَ من التوقُّفِ بنصيب، إن شاء الله.

مزج الهَزْل بالجِدّ في الكتاب

وهذا كتابُ موعظةٍ وتعريفٍ وتفقُّهٍ وتنبيه. وأراكَ قد عِبتَه قبل أنْ تقفَ على حُدودِه، وتتفكَّرَ في فصوله، وتَعتبِرَ آخرَه بأوّله، ومَصَادِرَه بموارده، وقد غلَّطك فيه بعضُ ما رأيتَ في أثنائه من مزحٍ لا تعرف معناه، ومن بَطالةٍ لم تطَّلعْ على غَورها؛ ولم تدرِ لم اجتُلِبت، ولا لأيِّ علَّةٍ تُكُلِّفتْ، وأيّ شيءٍ أُريد بها، ولأيِّ جِدٍّ احتُمِل ذلك الهزل، ولأيِّ رياضةٍ تُجُشِّمتْ تلك البَطالة؛ ولم تَدْرِ أَنَّ المزاحَ جِدٌّ، إذا اجتُلِب ليكون علَّةً للجِدِّ، وَأَنَّ البَطالة وَقارٌ ورَزانة، إذا تُكُلِّفت لتلك العاقبة.

ولمَّا قال الخليلُ بن أحمد: لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه حتَّى يتعلَّم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يُتوصَّل إلى ما يَحتاج إليه إلّا بما لا يَحتاج إليه، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه. وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنّه إن حَمَلْنا جميعَ من يتكلّف قراءةَ هذا الكتابِ على مُرِّ الحق، وصُعوبة الجِدّ، وثِقل المؤونة، وحِلية الوقار؛ لم يصبر عليه مع طوله إلّا من تجرَّدَ للعِلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزِّه، ونال سروره على حسب ما يُورث الطولُ من الكَدّ، والكثرةُ من السآمة.

إبداع الجاحظ في وصف الكِتَاب

ثمّ لم أرَكَ رضِيتَ بالطّعن على كلِّ كتابٍ لي بعينه، حتَّى تجاوزتَ ذلك إلى أَنْ عبتَ وضْعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ، وكيفَ تصرَّفتْ بها الوجوه. وقد كنتُ أعجَب من عيبك البعضَ بلا علم، حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم، ثم تجاوزْت ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبتَ الكِتَابَ؛ ونِعم الذّخر والعقدة هو، ونِعم الجليسِ والعُدَّة، ونِعم النشرة والنزهة، ونِعم المشتغل والحرفة، ونِعم الأنيس لساعة الوحدة، ونِعم المعرفةُ ببلاد الغربة، ونِعم القرين والدخِيل، ونِعم الوزير والنزيل.
والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علمًا، وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفًا، وإناءٌ شُحِن مُزَاحًا وجِدًّا؛ إنْ شئتَ كان أبيَنَ من سَحْبانِ وائل، وإنْ شئت كان أعيا من باقِل، وإنْ شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِه، وإنْ شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإنْ شئتَ ألهتْك طرائِفه، وإنْ شئتَ أشجَتْك مواعِظه. وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ

مُغر، وبناسكٍ فاتِكٍ، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدٍ حارّ. ومَنْ لك بطبيبٍ أعرابيٍّ، وَمَنْ لك برُوميٍّ هِنْدِيّ، وبفارسي يُونَانيّ، وبقَدِيم مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّع، وَمَنْ لك بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأوَّلَ والآخِر، والناقص والوافر، والخفيَّ والظاهِرَ، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيع، والغَثَّ والسمين، والشَّكْلَ وخِلافَه، والجِنَس وضدَّه.

وبعد: فمتى رأيتَ بستانًا يُحَمل في رُدْن()، ورَوضةً تُقَلُّ في حِجْر، وناطقًا ينطِق عن الموتَى، ويُترجمُ عن الأحياء؟! وَمَنْ لك بمؤنس لا ينام إلّا بنومِك، ولا ينطِّق إلّا بما تهوَى؟! آمَنُ مِنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ، وأحفَظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة، وأحفَظ لما استُحْفِظَ من الآدميِّين، ومن الأعْرَابِ المعربين، بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعتراضِ الاشتغال، ومن العُميانِ قبلَ التمتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العنايةُ تامَّةٌ لم تَنْقُص، والأذهانُ فارغةُ لم تنقَسِم، والإرادَةُ وافرةٌ لم تتشعَّب، والطِّينَةُ ليِّنة، فهي أقبلُ ما تكون للطبائع، والقضيبُ رطبٌ، فهو أقربُ ما يكون من العُلوق، حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها، ولم يُوهَنْ غَرْبُها، ولم تتفرَّق قُواها، وكانت كما قال الشاعر:

أتانِي هواها قبل أَنْ أَعرِفَ الهَوى

فصادفَ قلبًا خاليًا فتمكّنا

ومن كلامهم: التعلُّمُ في الصِّغَر كالنقشِ في الحجر.

وقال صالح بن عبد القدّوس:

وإنّ مَن أدَّبَته في الصِّبَا

كالعُود يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ

حَتّى تَرَاهُ مُورِقًا ناضِرًا

بعدَ الذي قد كان في يُبْسِهِ

وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ لعيسى بن عمر: اكتبْ شِعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ؛ لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ، وقد سهِر في طلبها ليلَته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وَزنها، ثم يُنشِدها الناسَ، والكتاب لا يَنْسى ولا يُبدِّلُ كلامًا بكلام.

وعبتَ الكتابَ، ولا أعلَمُ جارًا أبرَّ، ولا خَليطًا أنصفَ، ولا رفيقًا أطوعَ، ولا معلِّما أخضعَ، ولا صاحبًا أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنَايةً، ولا أقلَّ إمْلالًا وإبرامًا، ولا أحفَلَ أخلاقًا، ولا أقلَّ خِلافًا

وإجرامًا، ولا أقل غِيبةً، ولا أبعدَ من كذِبٍ، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفًا، ولا أقل تصلفًا وتكلفًا، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أتْرَك لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب.

ولا أعلَمُ قرينًا أحسنَ مُوَافاةً، ولا أعجَلَ مكافأةً، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أخفَّ مَؤُونَةً، ولا شجرةً أطولَ عمرًا، ولا أجمعَ أمرًا، ولا أطيَبَ ثمرةً، ولا أقرَبَ مُجتَنًى، ولا أسرَعَ إدراكًا، ولا أوجَدَ في كلّ إبَّانٍ، من كتاب.

ولا أعلَمُ نِتاجًا في حَدَاثةِ سنِّه، وقُرْب ميلادِه، ورُخْص ثمنه، وإمكانِ وجوده، يجمَعُ من التدابيرِ العجيبَة، والعلومِ الغريبة، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة، ومِنَ الحِكَم الرفيعة، والمذاهَب القويمة، والتجارِب الحكيمة، ومِنَ الإخبار عن القرون الماضية، والبلادِ المتنازحة، والأمثالِ السائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتَابُ. قال الله -عزّ وجلّ- لنبيّه -عليه الصلاَة والسلامِ-: (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) (العلق 3- 4)، فَوَصَفَ نَفْسَهُ، تبارك وتعالى، بأنْ علّمَ بالقَلم، كما وصف نفسَه بالكَرم، واعتَدَّ بذلك في نِعَمه العِظام، وفي أيادِيه الجِسام. وقد قالوا: "القَلَمُ أحدُ اللسانَين، وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَف النِّعمةَ في بَيان اللسان، كان بفضل النِّعمة في بيانِ القلم أعرَف. ثمَّ جَعَلَ هذا الأمرَ قرآنًا، ثمَّ جعلَه في أوَّل التنزيل ومستَفْتَح الكتاب.

ضرورة الاجتماع الإنساني

ثمَّ اعلمْ، رحِمَك الله تعالى، أنّ حاجةَ بعضِ الناس إلى بعضٍ، صفةٌ لازمةٌ في طبائِعهم، وخِلقةٌ قائِمةٌ في جواهِرهم، وثابتةٌ لا تُزَايلُهم، ومُحيطةٌ بجماعَتِهم، ومشتملةٌ على أدناهم وأقصاهم، وحاجَتُهُمْ إلى ما غاب عَنهم -ممَّا يُعيِشُهم ويُحْيِيهم، ويُمسِك بأرمَاقِهم، ويُصلِحُ بالهم، وَيَجمع شَمْلَهم، وإلى التعاوُنِ في دَرْكِ ذلك، والتوازُر عليه- كَحَاجَتِهم إلى التعاون على معرفة ما يضرُّهم، والتوازرِ على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تَغِبْ عنهم، فحاجَةُ الغائِبِ مَوصُولةٌ بحاجةِ الشاهد، لاحتياج الأدنَى إلى معرِفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفَةِ الأدنى. معانٍ متضمِّنة، وأسبابٌ متَّصلة، وحبالٌ منعقدة. وجعل حاجتنَا إلى معرفة أخبارِ مَنْ كان قبلَنا، كحاجة من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان

قبلهم، وحاجةِ مَن يَكونُ بعدَنا إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب الله البِشارات بالرُّسل، ولم يسخِّر لهم جميعَ خلْقه، إلّا وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خلْقه. وجعلَ الحاجَةَ حاجَتَين: إحداهما قِوامٌ وقُوت، والأخرى لذّةٌ وإمْتاعٌ وازديادٌ في الآلَة، وفي كلِّ ما أجذَلَ النفوس، وجمع لهم العَتاد. وذلك المقدارُ مِنْ جميع الصِّنْفَين وفقٌ لكثرةِ حاجاتهم وشَهوَاتهم، وعلى قدْر اتِّساع معرفتهم وبُعْدِ غَوْرهم، وعلى قَدْر احتمال طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة. ثم لم يقطع الزيادةَ إلّا لعجْز خلقِهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرّق بينهم وبين العجْز، إلّا بعدَم الأعيان؛ إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخَلق، ونعتًا من نُعوتِ العبيد.

لم يخلق الله تعالى أحدًا يستطيعُ بلوغَ حاجتِه بنفسه دونَ الاستعانة ببعضِ من سخَّرَ له، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّرٌ لأدقِّهم. وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السُّوقة في باب، وأحوج السُّوقَةَ إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيِّدُه. ثُمَّ جَعلَ الله تعالى كلَّ شيء للإنسان خَوَلًا، وفي يَدِهِ مُذلّلًا مُيَسَّرًا، إمّا بالاحتيالِ له والتلطُّفِ في إراغَتِه واستِمالتِه، وإمّا بالصَّوْلة عليه، والفتكِ به، وإمّا أَنْ يأتيه سهوًا ورهوًا. على أَنّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها. إلّا أنّ الحاجةَ تفترق في الجنس والجهةِ والجِبِلّة، وفي الحظّ والتقدير.

ثمَّ تعبَّدَ الإنسانَ بالتفكُّر فيها، والنظر في أُمورها، والاعتبار بما يَرَى، ووَصَل بينَ عُقولهم وبَيْنَ معرفةِ تلك الحكَمِ الشّريفة، وتلك الحاجاتِ اللازمة، بالنظر والتفكير، وبالتنقيب والتنْقير، والتثبّت والتوقُّف؛ وَوصَلَ معارفَهم بموَاقعِ حاجاتِهم إليها، وتشاعُرَهم بمواضع الحُكم فيها بالبيانِ عنها.

ضرورة البَيَان للاجتماع

وهو البيانُ الذي جعله الله تعالى سببًا فيما بينَهم، ومعبِّرًا عن حقائق حاجاتهم، ومعرِّفًا لمواضع سدِّ الخَلَّة1 ورفْع الشبهة، ومداواةِ الحَيرة، ولأنّ أكثرَ الناسِ عن الناس أفهمُ منهم عن الأشباحِ الماثلة،

والأجسام الجامدة، والأجرام الساكنة، التي لا يُتَعرَّفَ ما فيها من دَقائق الحكمةِ وكَنوز الآداب، وينابيعِ العلم، إلّا بالعقلِ الثاقب اللطيف، وبالنظرِ التامِّ النافذ، وبالأداةِ الكاملة، وبالأسبابِ الوافرة، والصبرِ على مكروه الفكر، والاحتراسِ من وُجوه الخُدَع. والتحفُّظِ من دواعي الهوى؛ ولأنَّ الشِّكْلَ أفهَمُ عنَ شِكله، وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به. وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائم، وضُروبِ السباع. والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له، وله آلفُ وإليه أنزَع، وكذلك العالِمُ والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله -عزّ وجلّ- لنبيِّه -عليه الصلاة والسلام-: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) (الأنعام:9)؛ لأنّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطِباعه آنس؛ وعلى قَدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه.

ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيان بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم يقلِّل، وأظهَرَ ولم يُخْفِ، وجعَل آلة البيانِ التي بها يتعارَفُون معانِيَهُم، والتَّرْجُمان الذي إليه يرجِعون عند اختلافِهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلةٍ خامسة؛ وإنْ نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تُبدَّل بجنسها الذي وُضِعت له وصُرفتْ إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعَقْد؛ والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالةِ، وصدقِ الشهادة ووُضوح البرهان، في الأجْرَام الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبيَّن ولا تحسُّ، ولا تَفهَم ولا تتحرَّك إلّا بداخلٍ يدخل علَيها، أو عندَ مُمْسِكٍ خلّي عنها.

ثمّ قسّم الأقسامَ ورتّب المحسوسات، وحصَّل الموجوداتِ، فجعل اللفظَ للسامع، وجعل الإشارةَ للناظر، وأشرَك الناظرَ واللامسِ في معرفة العَقْد، إلّا بما فضّل الله به نصيبَ الناظرِ في ذلك على قدْرِ نصيبِ اللامس. وجَعَلَ الخطَّ دليلًا على ما غابَ من حوائجه عنه، وسببًا موصولًا بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازنًا لما لا يأمَن نسيانه، ممَّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلَّف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامِّ والذائِق نصيباً.

نفع الحساب

ونفع الحساب معلومٌ، والخَلة في موضع فقدِه معروفة. قال الله تعالى: (الرَّحْمنُ عَلمَ الْقرْآنَ خَلقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ) (الرحمن:1- 4). ثم قال: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ) (الرحمن: 5). وبالبَيَانِ عَرَفَ الناسُ القرآنَ. وقال الله تبارَكَ وتعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُورًا، وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ) (يونس: 5)، فأجْرَى الحسابَ مُجرَى البيانِ بالقرآن. وبحُسْبان منازلِ القمر، عرَفنا حالاتِ المدِّ والجزْر، وكيف تكونُ الزيادةُ في الأهِلّة وأنصافِ الشهور، وكيف يكونُ النقصانُ في خلال ذلك، وكيف تلك المراتبُ وتلك الأقْدار.

فضل الكتابة

ولولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبار المخلَّدة، والحِكم المخطوطة التي تُحصِّنُ الحساب وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العِلم، ولغلَب سُلطانُ النِّسيانِ سلطانَ الذِّكْر، ولَمَا كان للناس مفزعٌ إلى موضع استذكار. ولو تمَّ ذلك لحُرِمنا أكثر النفع؛ إذ كنَّا قد علمْنا أنَّ مقدار حفْظ الناسِ لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يَبلغ من ذلك مَبْلغًا مذكورًا ولا يُغْنِي فيه غَنَاء محمودًا. ولو كُلِّفَ عامَّة مَن يطلب العِلمَ ويصطنِع الكتب، ألّا يزال حافظًا لفَهْرسَت كتبه لأعجزه ذلك، ولكلِّفَ شَطَطًا، ولَشَغله ذلك عن كثيرٍ ممّا هو أولى به.

وفهمُك لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع فهْم عين الصوتِ مجرَّدًا، وأَبَعدُ فهمِك لصوتِ صاحبك ومُعامِلك والمعاونِ لك ما كان صياحًا صرفًا، وصوتًا مصمَتًا، ونداءً خالصًا، ولا يكون ذلك إلّا وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطْلٌ من الدّلالة. فجُعل اللفظُ لأقربَ الحاجاتِ، والصوتُ لأنفَسَ من ذلك قليلًا، والكتابُ للنّازح من الحاجاتِ. فأمّا الإشارة فأقربُ المفهوم منها: رَفْعُ الحواجبِ، وكسرُ الأجفانِ، وليُّ الشِّفاهِ، وتحريك الأعناق، وقبْض جلدةِ الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبل تُجاهَ عينِ الناظر، ثمَّ ينقطع عملُها ويَدْرُس أثرها، ويموت ذكرها. ويصير بعدُ كلُّ شيءٍ فضَل عن انتهاء

مدَى الصوتِ ومنتهى الطرفِ، إلى الحاجة وإلى التّفاهم بالخطوطِ والكتب. فأيُّ نفعٍ أعظمُ، وأيُّ مِرْفَقٍ أعَونُ من الخطِّ، والحالُ فيه كما ذكرنا!! وليس للعَقْد حظُّ الإشارةِ في بُعد الغَاية.

فضل القلم واللسان

فلذلك وضع الله -عزّ وجلّ- القلم في المكان الرفيع، ونوَّه بذِكْره في المنْصِب الشريف حين قال: (ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ) (القلم:1) فأقسَمَ بالقَلَم كما أقسمَ بما يُخَطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأوَه، ولا يشُقُّ غبارَه، ولا يجري في حلبته، ولا يتكلّف بُعْدَ غايتِه. لكنْ لما أنْ كانت حاجاتِ الناسِ بالحَضْرة أكثرَ مِنْ حاجاتهم في سائر الأماكن، وكانت الحاجَةُ إلى بيانِ اللسان حاجةً دائِمة واكدةً، وراهِنةً ثابتةً، وكانت الحاجةُ إلى بَيانِ القلم أمرًا يكونُ في الغَيبة وعند النائبة، إلَّا ما خُصَّت به الدواوين؛ فإنَّ لسانَ القلم هناك أبسَطُ، وأثرَهُ أعَمُّ، فلذلك قدّموا اللسانَ على القلمِ. فاللسانُ الآنَ إنَّما هو في منافع اليدِ والمرافق التي فيها، والحاجاتِ التي تبلُغها.

فضل اليد

فمن ذلك حظُّها وقِسْطُها من منافع الإشارة، ثم نَصِيبُها في تقويم القلم، ثم حَظُّها في التصوير، ثم حَظُّها في الصناعات، ثم حَظُّها في العَقْد، ثم حَظُّها في الدَّفْع عن النفس، ثمّ حَظُّها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضُّؤ والامتساح، ثم انتقادِ الدنانيرِ والدِّراهم، ولُبسِ الثِّياب، وفي الدفع عن النفس، وَأَصْنَافِ الرَّمْي، وأصنافِ الضرْب، وأصناف الطَعْن، ثم النَّقْر بالعُود وتحريكِ الوتر؛ ولولا ذلك لبَطَل الضرْبُ كلُّه أو عامَّتُه. وكيف لا يكون ذلك كذلك ولها ضَرْبُ الطَّبْل والدُّفّ، وتحريك الصفَّاقَتين، وتحريك مخارِق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس. ولو لم يكنْ في اليدِ إلّا إمساكُ العِنان والزِّمام والخِطام لكانَ من أعظمِ الحظوظ.

فضل الكتاب

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدّين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقلِه، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغٌ ما استنطقته. ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحوجِك إلى التجمُّلِ له والتذمُّم منه؟ ومَن لكَ بزائرٍ إنْ شئتَ جعل زيارتَه غِبًّا، ووِرُوده خِمْسا، وإنْ شئتَ لَزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكانَ بعضِك؟

والقلمُ مكتفٍ بنفْسه، لا يحتاج إلى ما عندَ غيره؛ ولا بدَّ لبيان اللسانِ من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ، إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل في باب العامّ، إلّا أنّه أدنى

طبقاته؛ وليس يكتفي خاصُّ الخاصّ باللفظ عمَّا أدّاه، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصِّ الخاصّ.

والكتابُ هو الجليس الذي لا يُطريك، والصديق الذي لا يغْريك، والرفيق الذي لا يَملُّكَ، والمستَمِيح الذي لا يستَرِيثُك[24]، والجارُ الذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندَك بالملَق، ولا يعامِلك بالمَكر، ولا يخدَعك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذِب.

والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتَاعَك، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجوَّدَ بنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح[25] نفسَك، وعَمَّر صدرك، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقَةَ الملوك، وعَرفتَ به في شَهْرٍ ما لا تعرفُه من أفواهِ الرجال في دهْر، مع السلامةِ من الغُرم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوفِ ببابِ المكتسِب بالتعليم، ومِن الجُلوس بين يدَيْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقًا، وأكرمُ منه عِرْقًا، ومع السلامةِ من مجالَسَة البُغَضاء ومقارنةِ الأغبياء.

والكتابُ هو الذي يُطِيُعك بالليل كطاعتِه بالنهار، ويطيعُك في السَّفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنوم، ولا يعتَريه كَلالُ السهر. وهو المعلِّمُ الذي إنْ افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْك، وإنْ قطعتَ عنه المادَّة لم يقطَعْ عنك الفائدة، وإنْ عُزِلتَ لم يدَعْ طاعتَك، وإنْ هبَّتْ ريحُ أعادِيك لم ينقلبْ عليك، ومتى كنتَ منه متعلِّقًا بسببٍ، أو معتصَماً بأدْنى حبْلٍ؛ كان لك فيه غنًى من غيره، ولم تَضْطَرَّك معه وحشةُ الوَحدةِ إلى جليس السوء.

ولو لم يكن مِن فضَله عليك، وإحسانِه إليك، إلّا منعُه لكَ من الجلوسِ على بابك، والنَّظر إلى المارَّةِ بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوقِ التي تَلزَم، ومن فُضول النَّظَر، ومن عادةِ الخوض فيما لا يعنيك، ومِن ملابسةِ صغارِ الناس، وحضورِ ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسِدة، وأخلاقهم الرديَّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكانَ في ذلك السلامةَ، ثم الغنيمةُ، وإحرازُ الأصل، مع استفادةِ الفرع. ولو لم يكن في ذلك إلّا أنّه يشغَلُك عن سُخْف المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلِّ ما أشبهَ اللعب، لقد كان على صاحبه أسبَغَ النَّعمة وأعظَمَ المِنَّة.

وقد علمنا أنَّ أفضلَ ما يقطع به الفُرَّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلِهم، الكتاب. وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النَّيل أثرٌ في ازدِياد تجربةٍ ولا عقلٍ ولا مروءة، ولا في صونِ عرض، ولا في إصلاحِ دِين، ولا في تثمير مال، ولا في رَبِّ صنيعة، ولا في ابتداء إنعام.

أقوال بعض
العلماء في فضل الكتاب

قال المهلَّب لبنيه في وصيَّتِه: يا بَنِيَّ! لا تقُوموا في الأسواقِ إِلّا على زَرَّادٍ أَو وَرَّاق.

وحدَّثني صديقٌ لي قال: قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتابًا فيه مِن مآثر غطفان، فقال: ذهبَ المكارمُ إِلّا من الكتب.

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: غَبَرتُ أربعين عاماً ما قلت ولا بِتُّ ولا اتكأت إلّا والكتابُ موضوعٌ على صدري.

وقال ابن الجهْم: إذا غشِيَني النعاس في غيرِ وقتِ نوم تناولتُ كتابًا من كتب الحِكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائِد، والأريحيَّة التي تعتريني عند الظَّفر ببعض الحاجة، والذي يغشَى قلْبي من سرور الاستبانة وعزِّ التبيين أشدّ إيقاظًا مِن نَهيق الحَمير وهَدَّةِ الهدْم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه، ورجوتُ منه الفائدة، ورأيتُ ذلك فيه؛ فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كَمْ بقي من ورقِهِ مخافةَ استنفاده، وانقطاعِ المادَّة من قَلْبِه، وإنْ كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثيرَ الورق، كثيرَ العدد فقد تَمَّ عيشي، وكَمُلَ سروري.

وذكر العتبي كتابًا لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسختُه. فقال ابن الجهم: لكنّي ما رغّبني فيه إلّا الذي زهّدك فيه؛ وما قرأتُ قطُّ كتابًا كبيرًا فأخْلاني من فائدة، وما أُحصِي كَمْ قرأتُ من صغارِ الكتب فخرجتُ منها كما دخلتُ.

وقال العتبي ذاتَ يوم لابن الجهم: ألا تتعجَّبُ من فلانٍ!! نَظَر في كتاب الإقليدس مع جارية سَلْمَويه في يوم واحد، وساعةً واحدة، فقد فرغتِ الجاريةُ من الكتابِ، وهو بعدُ لم يُحكِم مقالةً واحدةً، على أنّه حُرٌّ مخيَّر، وتلك أمَةٌ مقصورة، وهو أحرصُ على قراءةِ الكتاب مِن سَلْمَوَيه على تعليم جارية. قال ابن الجهم: قد كنت أظنُّ أنّه لم يفهم منه شكلًا واحدًا، وأُرَاك تزعم أنّه قد فرغ من مقالَة!! قال العتبي: وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ، وهو رجلٌ ذو لسانٍ وأدب؟ قال: لأنِّي سمعتُه يقول لابنِه: كم أنفقتَ على كتابٍ كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، قال: إنَّما رَغَّبني في العلم أنّي ظننتُ أنّي أنفق عليه قليلًا وأكتسِب كثيرًا، فأمّا إذا صرتُ أنفِق الكثيرَ، وليسَ في يدي إلّا المواعيدُ، فإنِّي لا أريد العِلمَ بشيء!!

السماع والكتابة

فالإنسان لا يعلمُ حتى يكثُرَ سماعُه، ولا بُدَّ من أنْ تكون كتبُه أكثرَ من سَمَاعِه؛ ولا يعلمُ، ولا يجمع العِلم، ولا يُخْتَلَف إليه، حتى يكون الإنفاقُ عليه من ماله، ألذَّ عندَه من الإنفاق من مال عدوِّه. ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب ألذَّ عنده من عشق القيان، وإنفاق المستهترين بالبيان؛ لم يبلغ في العلم مبلغًا رضِيًّا. وليس يَنتفِع بإنفاقه، حتَّى يؤْثِر اتِّخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابي فرسَه باللبن على عياله، وحتَّى يؤَمِّل في العلم ما يؤمّل الأعرابي في فرسه.

حرص الزنادقة بتحسين كتبهم

وقال إبراهيم بن السّنديّ مرة: ودِدْتُ أنَّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيِّ الأبيض، وعلى تخيُّر الحبر الأسودِ المشرق البرَّاق، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطّ، فإنِّي لم أرَ كورَق كتبِهم ورقًا، ولا كالخطوط الّتي فيها خطًّا. وإذا غرِمتُ مالًا عظيمًا -مع حبِّي للمال وبُغْضِ الْغُرْم- كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب دليلًا على تعظيمِ العلمِ. وتعظيم العِلم دليلٌ على شرف النَّفس، وعلى السلامة من سُكْر الآفات.

قلت لإبراهيم: إنّ إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النّصارى على البِيَع، ولو كانت كتبُ الزنادقة كتبَ حِكمٍ وكتبَ فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُنَنٍ وتبيُّنٍ وتبيين، أو لو كانت كتبُهم كتبًا تُعرّف الناس أبواب الصّناعات، أو سُبُل التكسّب والتجارات، أو كتب ارتفاقات ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب -وإنْ كان ذلك لا يقرِّب من غِنًى، ولا يبعد من مأثَم- لكانوا ممّن قد يجوز أنْ يُظنَّ بهم تعظيم البيان، والرغبة في التبيّن، ولكنّهم ذهبوا فيها مذهب الدِّيانة، وعلى طريق تعظيم الملّة، فإنّما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارى على صُلبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سدنة البددة.

ولو كانوا أرادوا العِلم لكان العِلمُ لهم مُعرضًا، وكتبُ الحِكمة لهم مبذولةً، والطرق إليها سهلةً معروفة. فما بالهم لا يصنعون ذلك إلّا بكتب دياناتهم، كما يزخرف النصارى بيوت عباداتهم؟! ولو كان هذا المعنى مستحسناً عند المسلمين، أو كانوا يرون أنّ ذلك داعيةٌ إلى العبادة، وباعثةٌ على الخُشوع، لَبَلَغوا في ذلك بعفوهم، ما لا تبلغه النصارى بغاية الجَهْد.

فضل التعلّم

وقال بعضهم: كنتُ عندَ بعضِ العلماء، فكنتُ أكتب عنه بعضًا وأدَعُ بعضًا، فقال لي: اكتبْ كلَّ ما تسمعُ، فإنّ أخسَّ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيضَ.

وقال الخليل بن أحمد: تكثرْ من العلم لتعرِف، وتقللْ منه لتحفَظ.

وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليلُ وحدَه للصدر.

وأنشد قول ابن يَسِير:

أما لو أعِي كلَّ ما أسمَعُ

وأحفَظُ من ذاك ما أجمعُ

ولم أستَفِدْ غَيْرَ ما قد جمعـ

ـتُ لَقِيلَ هو العالِم المِصقَع[26]

ولكنَّ نفسي إلى كلّ نو

عٍ من العِلم تسمعُه تنزِعُ

فلا أنا أحفظُ ما قد جَمعـ

ـتُ ولا أنا مِن جَمعه أشبعُ

وأحصَر بالعِيِّ في مجلسي

وعِلمي في الكُتْبِ مستودَعُ

فمن يكُ في علمِه هكذا

يكنْ دهرَهُ القهقَرَى يرجِعُ

إذا لم تكنْ حافظًا واعيًا

فجمعُك للكتبِ لا ينفع

وقال أبو إسحاق: كلفَ ابنُ يسير الكتبَ ما ليس عليها. إنّ الكتبَ لا تحيي الموتَى، ولا تحوِّل الأحمقَ عاقلًا، ولا البليد ذكيًّا، ولكنَّ الطَّبيعةَ إذا كان فيها أدنى قَبُول، فالكتبُ تشحَذُ وتَفتِق، وتُرهِف وتَشفي. ومن أرادَ أنْ يعلمَ كلَّ شيء، فينبغي لأهلهِ أنْ يداووه! فإنّ ذلك إنما تصوَّرَ له بشيءٍ اعتراه!! فَمنْ كان ذكيًّا حافظًا فليقصِد إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحَةَ، ولا يدعُ أنْ يمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قَدَر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالمًا بخواصّ، ويكون غيرَ غفلٍ من سائر ما يجري فيه الناسُ ويخوضون فيه. ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئًا، إلّا نسيَ ما هو أكثرُ منه؛ فَهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.

جَمْع الكتب

وقيل: ما كان في خِزانةِ كتبِ يحيى، وفي بيت مدارسه كتابٌ إلّا وله ثلاثُ نسخ.

وقال أبو عمرو بنُ العلاء: ما دخلتُ على رجلٍ قطُّ، ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظرُ في دفترٍ وجليسُه فارغ اليد، إلّا اعتقدتُ أنّه أفضلُ منه وأعقل.

وقال أيضًا: قِيل لنا يومًا: إنّ في دار فلانٍ ناسًا قد اجتمعوا على سَوءة، وهم جُلوسٌ على خميرة لهم[27]، وعندهم طُنبُور. فتسوَّرنا عليهم في جماعةٍ من رجالِ الحيِّ، فإذا فتًى جالسٌ في وسط الدار، وأصحابُه حوله، وإذا همْ بِيضُ اللِّحَى، وإذا هو يقرأ عليهم دفترًا فيه شِعر. فقال الذي سعى بهم: السَّوءة في ذلك البيت، وإنْ دخلتموه عثَرتم عليها! فقلت: والله لا أكشفُ فتًى أصحابُه شيوخ، وفي يده دفترُ علم، ولو كان في ثوبه دمُ يحيى بنِ زكريَّا!!

وأنشد رجلٌ يُونسَ النحويَّ:

استودَعَ العِلمَ قرطاسًا فضيَّعه

فَبِئْسَ مستودَعُ العلمِ القراطيسُ

فقال يونس: قاتَلَه الله، ما أشدَّ ضَنانَتَه بالعلمِ، وأحسنَ صِيانته له، إنَّ علمَك مِن روحِك، ومالَكَ مِن بدنك، فضعْه منكَ بمكان الرُّوح، وضعْ مالَكَ بمكان البدن!!

ولقد دخلت على إسحاقَ بن سليمان في إمْرته، فرأيتُ السِّماطَين والرجالَ مُثُولًا كأَنَّ على رؤوسهم الطَّير، ورأيتُ فِرْشَتَه وبِزَّته؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيتِ كتبِه، وحواليه الأسفاطُ والرُّقوق، والقماطِرُ والدفاتِر والمَساطر والمحابر، فما رأيتُه قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزَلَ منهُ في ذلك اليوم؛ لأنَّه جمعَ مع المهابَة المحبَّةَ، ومع الفَخامة الحَلَاوةَ، ومع السُّؤدَد الحِكْمةَ.

وقال ابن داحة: كان عبدُ الله بنُ عبدِ العزيز بنِ عبد اللهِ بن عمر بن الخطَّاب، لا يجالسُ الناسَ، وينزلُ مَقْبَرَةً من المقابر، وكان لا يكادُ يُرى إلَّا وفي يده كتابٌ يقرؤه. فسُئِل عن ذلك، وعن نزولِه المقبرة، فقال: لم أرَ أوْعَظ من قبر، ولا أمتعَ من كتاب، ولا أسلَمَ من الوَحدة، فقيل له: قد جاء في الوَحدة ما جاء! فقال: ما أفسَدَها للَجاهِل وأصلحها للعاقل!.

ضروبٌ من الخطوط

وضروبٌ من الخُطوطِ بعد ذلك، تدلُّ على قَدْرِ منفَعَة الخطِّ. قال الله تبارَك وتعالى: (كِرامًا كاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ) (الانفطار:9) وقال الله -عزّ وجلّ-: (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي

سَفَرَةٍ) (عبس:11- 13) وقال: (فَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتابَهُ بيَمِينِهِ) (الحاقة: 19)، وقال: (وَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ) (الانشقاق: 10)، وقال: (اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) (الإسراء: 14).

ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظَ نِسيانٌ، ولكنَّه، تعالى وعزَّ، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخَه أوكَدُ وأبلغُ في الإنذار والتحذير، وأهيبُ في الصدور.

وخطٌّ آخرُ، وهو خطُّ الحازي والعرَّاف والزِّاجر [28]. وكان فيهم حليس الخطّاط الأسديّ، ولذلك قال شاعرهم في هجائهم:

فأنتم عضاريط الخَمِيسِ إذا غزَوْا

غَناؤكم تِلْكَ الأخاطيطُ في التُّرْبِ[29]

وخُطوطٌ أخر، تكون مستراحًا للأَسيرِ والمهموم والمفكِّر، كما يعتري المفكِّرَ من قَرْع السنِّ، والغضبانَ من تصفيقِ اليد وتجحيظِ العين. وقال تأبَّطَ شَرًّا:

لتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السنَّ مِنْ نَدَمٍ

إذا تذكَّرتَ يومًا بعضَ أخلاقي

وفي خطِّ الحزينِ في الأرض يقول ذو الرُّمَّة:

عَشِيَّةَ مالِي حِيلةٌ غيرَ أَنَّنِي

بِلَقْطِ الْحَصَى والخطِّ في الدارِ مُولَعُ

أخطُّ وأَمحو الخطَّ ثم أُعِيدُهُ

بكفِّيَ والغِرْبانُ في الدارِ وُقَّعُ

وذكر النابغةُ صنيعَ النساءِ، وفزَعَهنّ إلى ذلك، إذا سُبِين واغتربن وفكَّرن، فقال:

ويخططْنَ بالعِيدانِ في كلِ منزلٍ

ويَخبَأنَ رُمّانَ الثُّدِيِّ النواهدِ

وقد يفزع إلى ذلك الخَجِلُ والمتعلِّل، كما يفزع إليه المهمومُ، وهو قولُ القاسم بن أميَّةَ بنِ أبي الصّلت:

لا ينقرون الأرضَ عند سُؤالِهم

لتلمُّسِ العِلّاتِ بالعِيدانِ

بل يبسُطُون وجوهَهم فتَرَى لها

عندَ اللقاء كأحسَنِ الألوانِ

وقال الحارث بن الكِنْديّ، وذكرَ رجلًا سأله حاجةً فاعتراه العبثُ بأسنانه، فقال:

وآضَ[30] بكَفِّهِ يحتَكُّ ضِرسًا

يُرِينَا أنَّهُ وَجِعٌ بضِرْسِ

وربما اعتَرى هؤلاء عدُّ الحصى، إذا كانوا في موضعِ حصى، ولم يكونوا في موضع تراب، وهو قول امرئ القيس:

ظلِلْتُ رِدَائِي فوقَ رَأسِيَ قاعدًا

أعدُّ الحصَى ما تَنْقَضِي حَسَرَاتِي

وقال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلتْ:

نَهَرًا جَارِيًا وبيتًا عَلِيًّا

يعتَرِي المعتَفِين فضلُ ندَاكا

في تراخٍ من المكارمِ جَزْلٍ

لم تعلِّلهمُ بلَقْطِ حَصاكَا

وقال الآخر، وهو يصِف امرأةً قُتِل زوجُها، فهي محزونةٌ تلقُط الحصى:

وبيضاءَ مكسالٍ كأنَّ وشاحَها

على أمِّ أحوى المُقَلَتَين خَذُولِ

عَقَلتُ لها مِنْ زوجهَا عَدَدَ الحصى

مع الصُّبح، أو في جُنحِ كلِّ أصيلِ

يقول: لم أُعْطِهَا عقْلاً عن زوجها، ولم أُورثَهَا إلّا الهمَّ الذي دعاها إلى لقط الحصى. يخبر أنَّه لمنعَتِه لا يُوصَل منه إلى عقلٍ ولا قَوَد.

أقوال الشعراء في الخطوط

وممّا قالوا في الخطّ، قول المقنَّع الكنديّ في قصيدةٍ له، مدح فيها الوليدَ بن يزيدَ:

كالخطِّ في كُتُبِ الغلام أجادَه

بِمداده، وأسَدَّ من أقلامه

قلمٌ كخُرطوم الحمامةِ مائلٌ

مُستَحفِظٌ للعِلم من علّامه

يَسِم الحروفَ إذا يشاءُ بناءَها

لبيانِها بالنَّقْط من أرسامِه

مِن صُوفةٍ نَفث المداد سُخامه

حتى تغيَّرَ لونُها بسُخامِه

مُسْتعجِمٌ وهو الفصيحُ بكلِّ ما

نطق اللسانُ به على استعجامِه

وهجاؤه قاف ولام بعدها

ميم معلَّقةٌ بأسفلِ لامِه

وقال الطائيُّ، يمدح محمَّدَ بن عبدِ الملك الزَّيات:

لكَ القلمُ الأعلى الذي بشباته

يُصَابُ من الأمرِ الكُلَى والمفاصلُ

لك الخَلَواتُ اللاءِ لولا نجيُّها

لما احتفلت للمُلْكِ تلك المحافل

فصيحٌ إذا استنطقْتَه وهو راكبٌ

وأعجمُ إنْ خاطبتَه وهو راجِلُ

النقوش

وكانوا يجعلون الكتاب حفرًا في الصخور، ونقشًا في الحجارة، وخِلْقةً مُرَكَّبةً في البُنْيان، فربَّما كان الكتابُ هو الناتِئ، وربّما كان الكتاب هو الحفر، إذا كان تاريخًا لأمر جَسيم، أو عهدًا لأمرٍ عظيم، أو مَوعظةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرفٍ يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قُبَّة غُمْدَان[31]، وعلى باب القَيرُوان، وعلى باب سَمَرْقَند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقَّر[32]، وعلى الأبلَق الْفَرْد[33]، وعلى باب الرّها[34]، يعمِدُون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع المذكورة، فيضعون الخطّ في أبعدِ المواضع من الدُّثور، وأمنَعِها من الدروس، وأجدرَ أَنْ يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى على وجه الدّهر.

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالفات

وأقول: لولا الخطوطُ لبَطَلتْ العهودُ والشروطُ والسِّجِلَّاتُ والصِّكاك، وكلُّ إقطاعٍ، وكلُّ إنفاق، وكلُّ أمان، وكلُّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ جِوارٍ وحِلف. ولِتعظيم ذلك، والثقةِ به والاستنادِ إليه، كانوا يَدْعُونَ في الجاهلِيَّةِ مَنْ يكتبُ لهم ذكرَ الحِلْفِ والهُدْنة، تعظيمًا للأمر، وتبعيدًا من النسيان، ولذلك قال الحارث بن حِلِّزة، في شأنِ بكرٍ وتغلب:

واذكرُوا حِلْفَ ذِي المَجَاز وما قُـ

ـدِّمَ فيه العهودُ والكفلاءُ

حَذَرَ الجَورَ والتَّعدِّي، وهلْ يَنْـ

ـقُض ما في المَهارِقِ الأهواءُ

والمهارق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب، ولا يقال للكتب مَهارقُ حتَّى تكونَ كتبَ دينٍ، أو كتبَ عهودٍ، ومِيثاقٍ، وأمان.

الرقوم والخطوط

وليس بين الرُّقوم والخطوط فَرقٌ، ولولا الرقوم لهلكَ أصحابُ البَزِّ والغُزول، وأصحابُ الساج[35] وعامَّةِ المتاجر، وَليسَ بينَ الوُسومِ التي تكون على الحافر كلِّه والخفِّ كلِّه والظِّلفِ كلِّه، وبينَ الرقومِ فرقٌ، ولا بينَ العقودِ والرقوم فرقٌ، ولا بين الخطوط والرقوم كلِّها فرقٌ، وكلُّها خطوطٌ، وكلّها كتابٌ، أو في معنى الخطِّ والكتاب، ولا بين الحروف المجموعةِ والمصوَّرَةِ من الصوت المقطَّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوَّرة من السواد في القرطاس فرقٌ.

واللسان: يصنَع في جَوبة الفم وفي خارجه، وفي لَهاته، وباطنِ أسنانه، مثلَ ما يصنع القلمُ في المدادِ واللِّيقةِ والهواءِ والقرطاسِ، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثُل، ودَلالات، فيُعرف منها ما كانَ في تلك الصُّوَر لكثرةِ تَردادها على الإِسماع، ويُعرف منها ما كان مصوَّرًا من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدَلّوا بالضَّحك على السرور، وبالبكاءِ على الألم.

وعلى مثلِ ذلكَ عرفوا معانيَ الصوتِ، وضروبَ صورِ الإشارات، وصورِ جميع الهيئات، وكما عرف المجنون لقَبه، والكلبُ اسمَه. وعلى مثل ذلك فهِمَ الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون الوعيد والتهدُّد، وبمثل ذلك اشتدَّ حُضْرُ الدّابة مع رفع الصوت، حتّى إذا رأى سائسَه حمحم. وإذا رأى الحمامُ القَيِّمَ عليه انحطَّ لِلَقطِ الحبّ، قبل أن يُلقِي له ما يلقطه. ولولا الوسومُ ونُقُوش الخواتم، لدخل على الأموالِ الخللُ الكثير، وعلى خزائنِ الناس الضررُ الشديد.

الخطّ والحضارة

وليس في الأرض أمَّة بها طِرْق[36] أوْ لها مُسْكَة، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسْط، إلّا ولهم خطّ. فأمّا أصحاب المُلك والمملكة، والسلطانِ والجِباية، والدِّيانة والعبادة، فهناك الكتابُ المتقَن، والحساب المحكَم، ولا يخرج الخطُّ من الجزْم والمسنَد المنمنم.

تخليد العرب لمآثرها

وكلُّ أمَّةٍ تعتمدُ في استبقاءِ مآثِرها، وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكلٍ من الأشكال.

وكانت العربُ في جاهليَّتها تحتال في تخليدها، بأنْ تعتمد في ذلك على الشِّعر الموزون، والكلام المقفَّى، وكان ذلك هو ديوانها. وعلى أنَّ الشِّعرَ يُفيد فضيلةَ البيانِ، على الشاعر الراغبِ، والمادح، وفضيلةَ المأثُرة، على السيِّد المرغوبِ إليه، والممدوحِ به.

وذهبت العجَم عَلَى أن تقيِّد مآثرَها بالبُنيان، فبنوا مثلَ كرد بيداد، وبنى أرْدشير بيضاء إصطَخْر. وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس. ثمَّ إنَّ العربَ أحبَّتْ أن تشاركَ العجمَ في البناءِ، وتتفردَ بالشعر، فبنوا غُمدان، وكعبةَ نَجْرَان[37]، وقصرَ مارد، وقصر مأرب، وقصر شعوب[38] والأبلق الفرد، ولذلك لم تكن الفرسُ تبيح شريفَ البُنيان، كما لا تبيح شريف الأسماء، إلّا لأهل البيوتات، كصنيعهم في النواويس والحمَّامات والقِباب الخضر، والشُّرَف على حيطان الدار، وكالعَقْد على الدِّهليز وما أشبهَ ذلك، فقال بعض من حضر: "كُتُبُ الحكماءِ وَما دَوَّنت العلماءُ من صنوف البلاغات والصِّناعات، والآداب والأرفاق[39]، من القرونِ السابقة والأمم الخالية، ومَن له بقيَّة ومَن لا بقيّة له؛ أبقى ذكرًا، وأرفعُ قَدْرًا، وأكثر ردًّا؛ لأنَّ الحكمةَ أنفعُ لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسنُ في الأحدوثة، لمن أحبَّ الذكر الجميل".

والكتبُ بذلك أولَى من بُنيانِ الحجارة وحِيطان المدَر[40]؛ لأنَّ من شأن الملوك أنْ يطمِسوا على آثارِ من قبلَهُم، وأنْ يُميتوا ذكرَ أعدائِهم، فقد هدَموا بذلك السببِ أكثر المدنِ وأكثرَ الحصون، كذلك كانوا أيَّامَ العجم وأيَّامَ الجاهليّة. وعلى ذلك همْ في أيّام الإسلام، كما هدم عُثمانُ صومعةَ غُمدان، وكما هدمَ

الآطامَ[41] التي كانت بالمدينة، وكما هدم زيادٌ كلّ قصرٍ ومصنَعٍ كان لابن عامر، وكما هدم أصحابُنا بناءَ مدن الشامات[42] لبني مروان.

تاريخ الشِّعر العربي

وأمّا الشِّعرُ فحديثُ الميلاد، صغيرُ السنِّ، أوَّل من نَهَجَ سبيلَه، وسهَّل الطريقَ إليه: امرؤُ القيس بن حُجْر، ومُهَلْهِل بنُ ربيعة. وكُتُبُ أرسطاطاليسَ، ومعلِّمِه أفلاطونَ، ثم بَطْلَيموس، وديمقراطس، وفلان وفلان، قبلَ بدءِ الشِّعر بالدهور قبلَ الدهور، والأحقاب قبلَ الأحقاب.

فإذا استظهرنا الشِّعرَ، وجدنا له -إلى أنْ جاء اللهُ بالإسلام- خمسين ومئةَ عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام.

وفضيلة الشِّعر مقصورةٌ على العرب، وعلى من تكلَّم بلسان العرب، والشِّعرُ لا يُستطاع أنْ يترجَم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوِّل تقطَّع نظمُه وبطلَ وزنُه، وذهب حسنُه وسقطَ موضعُ التعجب، لا كالكلامِ المنثور. والكلامُ المنثور المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر.

وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كلِّ ما أقام لهم المعاشَ وبوَّب لهم أبوابَ الفِطَن، وعرَّفهم وجوهَ المرَافق؛ حديثُهم كقديمهِم، وأسودُهم كأحمرِهم، وبعيدُهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملةٌ لهم.

ترجمة الشعر العربي

وقد نُقلَتْ كتبُ الهند، وتُرجمت حكمُ اليونانيّة، وحُوِّلت آدابُ الفرس؛ فبعضُها ازدادَ حسنًا، وبعضها ما انتقص شيئًا، ولو حوَّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن؛ مع أنَّهم لو حوّلوها لم يجدوا في معانيها شيئًا لم تذكرْه العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكَمهم. وقد نُقِلَتْ هذه الكتبُ من أمَّةٍ إلى أمّة، ومن قَرنٍ إلى قرن، ومِن لِسانٍ إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنَّا آخرَ مَنْ ورِثها ونظَر فيها. فقد صحَّ أنَّ الكُتبَ أبلغُ في تقييدِ المآثِر، من البُنيان والشِّعر.

قِيْمَة التّرجمة

ثم قال بعضُ مَنْ ينصر الشِّعر ويحوطُه ويحتجُّ له: إَنَّ التَّرجُمانَ لا يؤدِّي أبدًا ما قالِ الحَكيمُ، على خصائِص معانيه، وحقائِق مذاهِبه، ودقائِقِ اختصاراته، وخفِيَّاتِ حدوده، ولا يقدِر أنْ يوفيَها حقوقَها،

ويؤدِّيَ الأمانة فيها، ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ ويجبُ على الجَرِيّ، وكيف يقدِر على أدائِها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقِّها وصدقها، إلّا أنْ يكونَ في العلم بمعانيها، واستعمالِ تصاريفَ ألفاظِها، وتأويلاتِ مخارجِها، مثلَ مؤلِّف الكتاب وواضعِه. فمتى كان رحمه الله تعالى ابنُ البِطريق، وابن ناعمة، وابن قرَّة، وابن فِهريز، وثيفيل[43]، وابن وهيلي، وابن المقفَّع، مثلَ أرِسطاطاليس؟! ومتى كان خالدٌ[44] مثل أفلاطون؟!

شرائط التَّرجمان

ولا بدَّ للتَّرجُمانَ من أنْ يكون بيانهُ في نفس الترجمة، في وزْن علمه في نفسِ المعرفة، وينبغي أنْ يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقولِ إليها، حتَّى يكونَ فيهما سواءً وغاية. ومتى وجدناه أيضًا قد تكلّم بلسانين، علمنا أنَّه قد أدخلَ الضَّيمَ عليهما؛ لأنَّ كلّ واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى، وتأخذُ منها، وتعترضُ عليها.

وكيف يكونُ تمكُّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكُّنِه إذا انفرد بالواحدة؟ وإنَّما له قوَّةٌ واحدة، فَإنْ تكلَّمَ بلغةٍ واحدة استُفْرِغَتْ تلك القوَّةُ عليهما، وكذلك إنْ تكلَّم بأكثرَ مِنْ لغتين، وعلى حساب ذلك تكون الترجمةُ لجميعِ اللغات. وكلَّما كانَ البابُ من العلم أعسرَ وأضيق، والعلماءُ به أقلَّ، كان أشدَّ على المُتَرجِم، وأجدرَ أن يخطئ فيه. ولن تجد البتَّة مترجِمًا يفِي بواحدٍ من هؤلاء العلماء.

شعر العرب والمولَّدين

والقضيّة التي لا أحتشِمُ منها، ولا أهابُ الخصومة فيها: أنّ عامّة العرب والأعراب والبدوِ والحضَر من سائر العرب، أشعر من عامَّة شعراءِ الأمصارِ والقُرَى، من المولَّدة والنابتة. وليس ذلك بواجبٍ لهم في كلِّ ما قالوه.

وقد رأيت ناسًا منه يبهرجون أشعارَ المولَّدين، ويستسقِطون مَن رواها ولم أرَ ذلك قطُّ إلَّا في روايةٍ للشِّعرِ غيرِ بصيرٍ بجوهر ما يروى. ولو كان له بصرٌ لعرَف موضعَ الجيِّد ممَّن كان، وفي أيِّ زمان كان.

وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانيَّ وقد بلغ من استجادته لهذين البيتينِ، ونحنُ في المسجدِ يوم الجمعة، أنْ كلَّف رجلًا حتى أحضره دواةً وقرطاسًا حتّى كتبهما له. وأنا أزعم أنَّ صاحب هذين البيتين لا يقول شِعرا أبدًا. ولولا أنْ أُدخِلَ في الحكم بعض الفتك لزعمتُ أنّ ابنه لا يقول شعرًا أبدًا، وهما قوله:

لا تحسِبَنَّ الموتَ مَوْتَ البِلَى

فَإنَّما المَوتُ سُؤالُ الرِّجالِ

كلاهما موتٌ ولكِنَّ ذَا

أفظَعَ من ذاكَ لذلِّ السُّؤال

القول في المعنى واللفظ

المعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرَوي، والمدنيّ. وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطّبع وجَودَة السَّبك، فإنما الشِّعر صناعةٌ، وضَرْبِ من النَّسج، وجنسٌ من التَّصوير.

وقد قيل للخَليلِ بنِ أحمد: مالكَ لا تقولُ الشِّعر؟ قال: "الذي يجيئُني لا أرضاه، والذي أرْضاه لا يجيئني".

فأنا أستحسنُ هذا الكلام، كما أستحسنُ جوابَ الأعرابيِّ حين قيل له: كيفَ تجدُك؟ قال: أجدني أجدُ ما لا أشتَهِي، وأشتهي ما لا أجد!

ونقول: إن الفرق بين المولَّد والأعرابي: أنَّ المولَّد يقول، بنشاطه وجمع باله، الأبياتَ اللاحقَةَ بأشعار أهلِ البدو، فإذا أمَعنَ انحلَّت قوَّته، واضطربَ كلامُه.

ترجمة كتب الدِّين

هذا قولنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون؛ فكيف لو كانت هذه الكتبُ كتبَ دِينٍ وإخبار عن الله -عزَّ وجلَّ- بما يجوز عليه ممَّا لا يجوز عليه، حتَّى يريد أَنْ يتكلَّم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقودًا بالتوحيد، ويتكلَّمَ في وجوهِ الإخبار واحتمالاته للوُجوه، ويكونَ ذلك متضمِّنًا بما يجوز على الله تعالى ممَّا لا يجوزُ، وبما يجوز على الناس مما لا يجوز، وحتَّى يعلمَ مستقرَّ العامِّ والخاصّ، والمقابلاتِ التي تَلقَى الأخبارَ العامِّيةَ المخرَج فيجعلَها خاصيَّة. وحتَّى يعرفَ من الخبر ما يخصُّه الخبر الذي هو أثر، ممَّا يخصّه الخبر الذي هو قرآن، وما يخصُّه العقل مما تخصُّه العادة أو الحال الرادَّةُ له عن العموم، وحتَّى يعرفَ ما يكونُ من الخبر صِدقًا أو كذبًا، وما لا يجوز أن يسمَّى بصدقٍ ولا كذب؛ وحتَّى يعرفَ اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنًى يشتمل ويجتمع، وعند فَقْد أيِّ معنًى ينقلب ذلك الاسم.

وكذلك معرفة المُحالِ من الصحيح، وأيّ شيءٍ تأويلُ المحال؛ وهل يسمَّى المحال كذبًا أم لا يجوز ذلك، وأيّ القولين أفحشُ: المُحال أَمْ الكذب، وفي أيِّ موضع يكونِ المحالُ أَفْظَعَ، والكذبُ أشنَع؛ وحتَّى يعرف المثلَ والبديع، والوحي والكناية، وفصْل ما بين الخطَلِ والهَذْر، والمقصور والمبسوط والاختصار؛ وحتَّى يعرف أبنيةَ الكلام، وعاداتِ القوم، وأسبابَ تفاهمهم، والذي ذكرنا قليلٌ من كثير. ومتى لم يعرفْ ذلك المترجمُ أخطأَ في تأويل كلام ِالدِّين، والخطأُ في الدِّين أضرُّ من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفةِ والكَيْمِيَاء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم.

وإذا كان المترجِم الذي قد تَرجمَ لا يكمل لذلك، أخطأ على قدْرِ نقصانه من الكمال. وما عِلْمُ المترجِم بالدليل عن شبه الدليل؟ وما علْمه بالأخبار النجوميّة؟ وما علمه بالحدود الخفيّة؟ وما علمُه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمُه ببعضِ الخطرفة لبعض المقدَّمات؟ وقد علمنا أنَّ المقدَّمات لا بدَّ أَنْ تكون اضطراريّة، ولا بدَّ أَنْ تكون مرتَّبةً، وكالخيط الممدود. وابنُ البِطريق وابن قرّة لا يفهمان هذا موصوفًا منزَّلًا، ومرتَّبًا مفصَّلًا، من معلِّم رفيقٍ، ومن حاذقٍ طَبٍّ؛ فكيف بكتابٍ قد تداولَتْه اللغاتُ واختلافُ الأقلام، وأجناسُ خطوطِ المِلل والأمم؟!

ولو كان الحاذقُ بلسان اليونانيِّين يرمي إلى الحاذق بلسان العربيّة، ثم كان العربيُّ مقصِّرًا عن مقدار بلاغة اليونانيّ، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يَجِد اليونانيُّ الذي لم يرضَ بمقدار بلاغته في لسان العربيَّة بُدًّا من الاغتفار والتجاوز، ثمّ يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين؛ وذلك أنَّ نسختَه لا يَعدَمها الخطأ، ثمَّ ينسخُ له من تلك النسخة مَن يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة. ثمّ لا ينقص منه؛ ثم يعارض بذلك مَن يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاحُ السَّقَط الذي لا يجدُه في نسخته.

مشقَّة تصحيح الكتب

ولربَّما أراد مؤلِّف الكتاب أنْ يُصلِح تصحيفًا، أو كلمةً ساقطة، فيكون إنشاء عشرِ ورقاتٍ من حرِّ اللفظ وشريفِ المعاني؛ أيسَرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردَّه إلى موضعه من اتِّصال الكلام؛ فكيف يُطيق ذلك المعارض المستأجر، والحكيمُ نفسهُ قد أعجزه هذا الباب!

وأعجب من ذلك أنَّه يأخذ بأمرَين: قد أصلحَ الفاسد وزاد الصالحَ صلاحًا. ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً لإنسانٍ آخرَ، فيسير فيه الورَّاقُ الثاني سيرةَ الوَرَّاقِ الأوَّل؛ ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأعْرَاض المفسِدة، حتَّى يصير غَلَطًا صِرفًا، وكذِبًا مصَمتًا، فما ظنُّكم بكتابٍ تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطَّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتابٍ متقادِم الميلاد، دُهْرِيّ الصنعة!

بين أنصار التَّدوين وأنصار المشافَهة

قالوا: فكيف تكون هذه الكتبُ أنفعَ لأهلها من الشَعر المقفى؟ قال الآخر: إذا كان الأمرُ على ما قلتم، والشأنُ على ما نزَّلتم، أليس معلومًا أنَّ شيئًا هذه بقيَّتُهُ وفضلته، وهذا مظهرُ حاله على شدَّة الضيم، وثبات قوته على ذلك الفسادِ وتداوُلِ النقص، حريٌّ بالتعظيم، وحقيقٌ بالتفضيل على البيان، والتقديمِ على شِعرٍ إنْ هو حُوِّل تهافَتَ، ونفعُه مقصورُ على أهله، وهو يُعدُّ من الأدب المقصور، وليس بالمبسوطً؛ ومن المنافع الاصطلاحيَّة وليست بحقيقة بيِّنة، وكلُّ شيء في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتبِ دونَ الأشعار، وها هنا كتبٌ هي بينَنَا وبينكم، مثل كتاب أقليدِس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسْطي[45]، ممّا تولّاه الحَجَّاج.

فأما فضيلة الشِّعر فعلى ما حكينا، ومنتهى نفعِه إلى حيث انتهى بنا القول.

وحسْبُك ما في أيدي الناس من كتب الحساب، والطبّ، والمنطق، والهندسة، ومعرفةِ اللُّحون، والفِلاحة، والتِّجارة، وأبواب الأصباغ، والعِطر، والأطعمة، والآلات. وهم أتَوكم بالحكمة، وبالمنفعة التي في الحمَّامات وفي الاصطرلابات والقَرسطونات[46] وآلات معرفة الساعات، وصنعة الزجاج والفسَيفِساء، والأسرنج[47] والزنجفور[48] واللازَوَرد[49] والأشربة، والأنْبَجَات[50]، ولكم المينا، والنشادر والشَّبَه[51] وتعليق الحيطان والأساطين، وردُّ ما مال منها إلى التقويم. ولهم صبُّ الزردج، واستخراج النَّشَاسْتَج، وتعليق الخيَش، واتِّخاذ الجمّازات، وعمل الحَرَّاقات، واستخراج شراب الداذِيّ[52] وعمل الدّبابات.

الترغيب في اصطناع الكتاب

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على مَنْ زَرَى[53] على واضِع الكتب، فأقول: إنّ من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومَرَاشدِهم، ومضارِّهم ومنافِعهم، أن يُحْتَمَلَ ثِقْلُ مؤونتهم في تقويمهم، وأنْ يُتَوَخَّى إرشادُهم وإنْ جهلوا فضلَ ما يُسْدَى إليهم، فلن يُصَانَ العلمُ بمثل بذْله، ولن تُستَبقى النعمةُ فيه بمثل نشره.

على أنَّ قراءةَ الكتبِ أبلغَ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التّلاقي يشتدّ التصنّع، ويكثرُ التظالم، وتُفرط العصبيّة، وتقوَى الْحَمِيَّة؛ وعند المواجَهةِ والمقابلَة، يشتدُّ حبُّ الغلَبة، وشهوةُ المباهاةِ والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفةِ من الخضوع؛ وعن جميعِ ذلك تحدُث الضغائِن، ويظهرُ التباين.

وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ وعلى هذه الهيئة، امتنعتْ من التعرُّف، وعمِيت عن مواضع الدّلالة، وليست في الكتب عِلَّةٌ تمنع من دَرْك البُغْية، وإصابة الحجَّة، لأنَّ المتوحِّد بِدَرْسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسَه ولا يغالب عقلَه، وقد عَدِم مَنْ له يُباهي وَمِنْ أجله يغالب.

الكتاب قد يَفْضُل صاحبه

والكتابُ قد يفضُل صاحبَه، ويتقدَّم مؤلِّفَه، ويرجِّح قلمَه على لسانه بأمور: منها أنّ الكتابَ يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ ما فيه على كلِّ لسان، ويُوجَد مع كلِّ زمان، على تفاوُتِ ما بينَ الأعصار، وتباعُدِ ما بين الأمصار؛ وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع في المسألة والجواب. ومناقلةُ اللسان وهدايته لا تجوزان مجلسَ صاحبه، ومبلغَ صوتِه.

وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كتبُه، ويذهب العقلُ ويبقى أثره. ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ في كتبها، وخلَّدت من عجيبِ حكمتها، ودوَّنت من أنواعِ سِيَرِها، حتَّى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان علينا، فجمَعنا إلى قليلِنا كثيرَهم، وأدركْنا ما لم نكن ندركُه إلّا بهم؛ لما خسَّ حظّنا من الحكمة، ولضعف سبَبُنَا إلى المعرفة. ولو لجأنا إلى قَدْر قوَّتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسُّنا، وتشاهدُه نفوسنا، لقلَّت المعرفةُ، وسَقَطت الهِمَّة، وارتفعت العَزيمة، وعاد الرأيُ عقيمًا، والخاطِر فاسدًا، ولَكَلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل.

وأكثرُ مِنْ كتبهم نفعًا، وأشرف منها خَطَرًا، وأحسنُ موقعًا، كتُبُ اللهِ تعالى، فيها الهُدَى والرحمة، والإخبارُ عن كلِّ حكمة، وتعريفُ كلِّ سيِّئةٍ وحسَنة. وما زالت كتبُ الله تعالى في الألواحِ والصُّحُف،

والمهارق والمصاحِف. وقال الله عزّ وجل (الم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ) (البقرة:1- 2). وقال: (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام:38)، ويقال لأهل التَّوراةِ والإنْجيل: أهل الكتاب.

مواصلة السير في خدمة العلم

وينبغي أنْ يكونَ سبيلُنا لِمَنْ بعدَنا، كسبيلِ مَن كان قبلنا فينا. على أنَّا وقد وجدْنا من العبرة أكثرَ ممَّا وجدوا، كما أنَّ مَن بعدَنا يجدُ من العِبرة أكثرَ ممَّا وجدْنا. فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عندَه، وما يمنَع الناصرَ للحقِّ من القيامِ بما يلزمُه، وقد أمكن القولُ، وصلَح الدهرُ، وهَبَّتْ رِيحُ العلماء، وكسَدَ العِيُّ والجهل، وقامت سوقُ البيان والعلم؟!

وليس يجدُ الإنسانُ في كل حينٍ إنسانًا يدَرِّبه، ومقوِّمًا يثقِّفه. والصبرُ على إفهام الرِيِّض شديد، وصرفُ النفسِ عن مغالبة العالِم أشدُّ منه، والمتعلِّم يجدُ في كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيدًا، وبما يحتاج إليه قائمًا وما أكثرَ مَن فرَّط في التعليم أيَّام خُمولِ ذكره، وأيَّام حَداثةِ سنِّه!!

ولولا جِيادُ الكتبِ وحسَنُها، ومُبَيَّنُها ومختَصَرها، لَمَا تحرَّكت هممُ هؤلاءِ لطلب العلم، ونزعت إلى حبِّ الأدب، وأنِفَتْ من حالِ الجهل، وأنْ تكون في غِمار الحَشْو، ولَدخل على هؤلاء من الخَللِ والمضرَّة، ومن الجهل وسوء الحال، وما عسى ألا يمكن الإخبارُ عن مقداره، إلّا بالكلام الكثير، ولذلك قال عمرُ رضي الله تَعالى عنه: "تفقّهوا قبلَ أن تسودوا".

وينبغي لمن كَتَب كتابًا ألَّا يكتُبَه إلّا على أَنَّ النَّاس كلَّهم له أعداء، وكلُّهم عالمٌ بالأمور، وكلُّهم متفرِّغ له، ثمَّ لا يرضى بذلك حتّى يدع كتابه غُفْلًا، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنَّ لابتداء الكتابِ فتنةً وعُجْبًا، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجَعتِ الأخلاط، وعادت النفسُ وافرة؛ أعاد النَّظرَ فيه، فَيَتَوَقَّفُ عند فصوله، ويتفهّم معنى قولِ الشاعر:

إنَّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خلوتُه

حتّى يَلجَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

تداعي المعاني في التأليف

وليعلم أنَّ صاحبَ القلم يعتريه ما يعتري المؤدِّبَ عند ضربه وعقابه، فمَا أكثر من يَعزم على خمسةِ أسواط فيضرب مئة. لأنَّه ابتدأ الضربَ وهو ساكنُ الطّباع، فأراه السكونُ أنَّ الصوابَ في الإقلال، فلما ضرب تحرَّكَ دمُه، فأشاع فيه الحرارةَ فزادَ في غضبه، فأراه الغضبُ أنّ الرأي في الإكثار، وكذلك صاحب القلم؛ فمَا أكثرَ من يبتدئ الكتابَ وهو يُريد مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة! والحفظُ مع الإقلال أمكَن، وهو مع الإكثار أبعَد.

الشك واليقين

وبعد هذا فاعرِفْ مواضع الشّكّ، وحالاتها الموجبةَ له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشّكّ في المشكوك فيه تعلّمًا. فلو لم يكن في ذلك إلّا تعرّف التوقّف ثمَّ التثبُّت، لقد كان ذلك ممّا يحتاج إليه.

ثمّ اعلمْ أنَّ الشّكّ في طبقات عند جميعهم، ولم يُجْمعوا على أنّ اليقينَ طبقات في القوّة والضّعف.

ولمّا قال ابن الجهم المَكِّيِّ: أنا لا أكاد أشكُّ! قال المكّيّ: وأنا لا أكادُ أوقن! ففخر عليه المكيّ بالشّكّ في مواضع الشّك، كما فخر عليه ابنُ الجهم باليَقين في موَاضع اليقين.

وقال أبو إسحاق: نازعتُ من الملْحِدين الشاكّ والجاحد فوجدتُ الشُّكَّاك أبصرَ بجوهر الكلام مِن أصحاب الجحود.

وقال أبو إسحاق: الشاكُّ أقربُ إليك من الجاحِد، ولم يكنْ يقينٌ قطّ حتى كان قبله شَكّ، ولمْ ينتقل أحدٌ عن اعتقادٍ إلى اعتقادٍ غيره حتّى يكونَ بينهما حالُ شكّ.

وقال ابنُ الجهم: ما أطمعَني في أوْبة المحيِّر! لأنّ كلّ من اقتطَعَته عن اليقين الحيرةُ فَضَالّته التبيُّن[54]، ومَنْ وَجد ضالّته فرِح بها.

وقال عمرو بن عُبيد: تقرير لسانِ الجاحد أشدُّ من تعريفِ قلب الجاهل.

وقال أبو إسحاق: إذا أردتَ أن تعرف مقدار الرُّجل العالِم، وفي أيِّ طبقةٍ هو، فكنْ عالمًا في صورةِ متعلّم، ثم اسألْه سؤالَ من يَطمعُ في بلوغِ حاجتِهِ منه.

والعوامُّ أقلُّ شكوكًا من الخواصّ؛ لأنَّهم لا يتوقَّفون في التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلاَّ الإقدامُ على التَّصديق المجرّد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشَّكّ التي تشتَمل على طبَقات الشك، وذلك على قَدْر سُوء الظّنِّ وحُسن الظّن بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلب.

مقايسة بين الولد والكتاب

واعلم أَنَّ العاقلَ إنْ لم يكن بالمتتبِّع، فكثيرًا ما يعتريه من ولده، أنْ يحسُنَ في عينه منه المقبَّحُ في عين غيره، فليعلمْ أَنَّ لفظَه أقربُ نسبًا منه مِن ابنه، وحركَتَه أمسُّ به رحْمًا من ولَده؛ لأَنَّ حركتَه شيءٌ أحدثَه من نفسه وبذاتِهِ، ومن عين جوهره فَصَلت، ومن نفسِه كانت؛ وإنّما الولدُ كالمَخْطَةِ يتمخَّطها، والنُّخَامةِ يقذِفها، ولا سواءٌ إخراجُكَ مِنْ جزئك شيئًا لم يكن منك، وإظهارُك حركةً لم تكن حتَّى كانت منك. ولذلك تجِدُ فتنةَ الرجُل بشِعرِه، وفتنتَه بكلامِه وكتبِه، فوقَ فتنته بجميعِ نِعمته.

ما ينبغي أنْ تكون عليه لغة الكتب

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حتَّى لا يحتاج السامع لما فيه من الرويّة، ويحتاجُ مِنَ اللفظ إلى مقدارٍ يرتفع به عَنْ ألفاظ السِّفْلَةِ والحَشْو، ويحطُّه من غريب الأعراب ووَحْشِيِّ الكلام، وليس له أَنْ يهذِّبَه جدًّا، وينقِّحَه ويصفِّيه ويروّقه، حتى لا ينطِقَ إلّا بِلُبِّ اللُّبِّ،

وباللفظ الذي قد حذف فَضُوله، وأسقَط زوائِدَه، حتّى عاد خالصًا لا شَوْب فيه؛ فإنّه إنْ فعل ذلك، لم يُفْهَمْ عنه إلّا بأنْ يجدِّد لهم إفهامًا مِرَارًا وتَكرارا؛ لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدُوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلّا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها.

ألا تَرَى أَنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم، لو قرأتَه على جميع خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب، لما فهِموا أكثرَه، وفي كتاب أقليدِسَ كلامٌ يدور، وهو عربيٌّ، وقد صفِّي، ولو سمِعه بعضُ الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يُفهِّمه من يريد تعليمه؛ لأنَّه يحتاج إلى أنْ يكون قد عرَف جهةَ الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرِج من جميع الكلام.

مخاطبة القرآن للعرب وبني إسرائيل

ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العربَ والأَعْرَابَ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خاطَبَ بني إسرائيل، أو حكَى عنهم؛ جعلَه مبسوطًا، وزاد في الكلام. فأصوبُ العمل اتِّباعُ آثار العلمَاء، والاحتذاءُ على مثالِ القدماء، والأَخذُ بما عليه الجماعة.

الكتب ولأَخبار

وممَّا يدلُّ على نفع الكِتاب، أنَّه لولا الكتابُ لم يُجزْ أنْ يعلمَ أهل الرَّقَّةِ والموصِل وَبغدادَ ووَاسط، ما كان بالبصرةِ، وما يحدث بالكوفةِ في بياضِ يوم، حتَّى تكونَ الحادثةُ بالكوفةِ غُدوةً، فتعلمُ بها أهلُ البَصرة قبلَ المَساء.

وذلك مشهورٌ في الحمام الهدي، إذا جُعِلت بُرُدًا[55]، قال الله جلّ وعزّ- وذكر سليمانَ ومُلكَه الذي لم يؤتِ أحدًا مثلَه- فقال: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ) (النمل:20) إلى قوله: (أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) (النمل:21) فلمْ يلبثْ أنْ قال الهُدْهُدُ: (جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ. إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَها عَرْشٌ عَظِيمٌ) (النمل:22-23)، قال سليمانَ: (اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ) (النمل:28)، وقد كان عندَه مَن يبلِّغ الرسالةَ على تمامها، مِن عِفريت، ومِن بعض مَن عنده عَلمٌ من الكتاب، فرأى أنَّ الكتابَ أبهى وأنبَل، وأكرمُ وأفخَمُ من الرسالة عن ظهر لسان، وإنْ أحاطَ بجميع ما في الكتاب. وقالت مَلكةُ سَبَأ: (يا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ) (النمل:29). فهذا مما يدلّ على قَدْر اختيار الكتب.

استخدام الكتابة
في أمور الدِّين والدُّنيا

وقد يريد بعضُ الْجِلَّةِ الكبار، وبعضُ الأُدباءِ والحكماءِ، أنْ يدعو بعضَ مَن يجري مَجْراه في سلطانٍ أوْ أدبٍ، إلى مأدُبةٍ أو نِدامٍ[56]، أو خُروجٍ إلى متنزَّه، أو بعض ما يشبهُ ذلك، فلو شاءَ أن يبلِّغهُ الرسولُ إرادته ومعناه، لأصابَ مَن يُحسن الأداء، ويصدُق في الإبلاغ، فيرى أنَّ الكتاب في ذلك أسرَى وأنبَه وأبلغ.

ولو شاءَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ألّا يكتبَ الكتبَ إلى كسرَى، وقَيْصَرَ، والنَّجَاشيِّ، والمقوقِس، وإلى ابني الجُلَنْدَى[57]، وإلى العباهلة، وإلى هوذَة بنِ علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلِّغَ المعصوم من الخطأ والتَّبديل، ولكنَّه عليه الصلاة والسلام، عَلِمَ أنَّ الكتابَ أشبهُ بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب، وأبلغُ في تعظيم ما حواه الكتاب.

ولو شاء الله أنْ يجعَل البشارات على الأَلسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنَّه تعالى وعزّ، علم أنّ ذلك أتمُّ وأكملُ، وأجمعُ وأنبلُ.

وقد يكتب بعضُ من له مرتبةٌ في سلطان أو ديانة، إلى بعضٍ من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتّى يخزمه ويختمه، وربَّما لم يرضَ بذلك حتى يُعَنْوِنه ويعظمه، قال الله -جلّ وعز-: (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى) (النجم:37) فذكر صحفَ موسى الموجودة، وصحفَ إبراهيم البائدة المعدومة؛ ليعرف الناس مقدارَ النفع، والمصلحة في الكتب.

وراثة الكتب

ووراثة الكتب الشريفة، والأَبواب الرفيعة، منبهةٌ للمورِّث، وكنزٌ عند الوارث، إلّا أنّه كنزُ لا تجب فيه الزكاة، ولا حقُّ السلطان. وإذا كانت الكنوز جامدةً ينقصها ما أُخذ منها؛ كان ذلك الكنز مائعًا يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورِّث مذكورًا في الحكماء ومنوَّها، باسمه في الأَسماء، وإمامًا

متبوعًا، وعلمًا منصوبًا، فلا يزال الوارث محفوظًا، ومن أجله محبوباَ ممنوعًا، ولا تزال تلك المحبَّة ناميةً، ما كانت تلك الفوائد قائمةً؛ ولن تزال فوائدها موجودةً ما كانت الدار دارَ حاجةٍ، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس أثر.

وقالوا: من ورَّثتُه كتابًا، وأودعتُه علمًا، فقد ورَّثتُه ما يُغِل ولا يَستَغِلّ، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارةٍ[58]، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجالٍ بإيغار[59]، ولا إلى شرطٍ، ولا تحتاج إلى أكِّار[60]، ولا إلى أن تُثار، وليس عليها عُشرٌ، ولا للسلطان عليها خَرْجٌ. وسوَاء أفدتُه علمًا أو ورُّثته آلة علم، وسواء دُفعك إليه الكفايةَ، أو ما يجلب الكفايةَ. وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قَدْر الإمكان. فمن لم يقْدِر إلّا على دفع السَّبب لم يجب عليه إحضار المسبَّب، فكُتب الآباء تحبيب للأحياء، ومحي لذكر الموتى.

وقالوا: ومتى كان الأديب جامعًا بارعًا. وكانت مواريثه كتبًا بارعة، وآدابًا جامعة، كان الولد أجدر أنْ يرى التعلّم حظًّا، وأجدر أنْ يسرع التعليمُ إليه، ويرى تركه خطأ. وأُجدرَ أنْ يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له، وأجدرَ أنْ يسري إليه عِرقُ مَن نَجلَه، وسقي من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسْب، النظر في الكتبِ، فلا يأتي عليه من الأيَّام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلّا وقد بلغ بالكفايةَ، وغاية الحاجة.

وإنَّما تُفسد الكفاية من له تمت آلاته[61]، وتوافت إليه أسبابه. فأَّما الحدَث الغرير، والمنقوص الفقير؛ فخيرُ مواريثه الكفاية إلى أنْ يبلغ التمام، ويكمل للطلب. فخير ميراثٍ وُرَّث كتبٌ وعلمُ، وخيرُ المورّثين من أورث ما يجمع ولا يفرِّق، ويبصِّر ولا يُعمي. ويعطي ولا يأخذ، ويجود بالكلِّ دون البعض، ويدع لك الكنزَ الذي ليس للسلطانِ فيه حقٌّ، والرّكاز[62] الذي ليس للفقراء فيه نصيبٌ، والنِّعمةَ التي ليس للحاسد فيها حيلةٌ، ولا لِلُصوصِ فيها رغبةٌ، وليس للخصم عليك فيه حجَّةٌ، ولا على الجار فيه مَؤونةٌ.



1. يُشكّل هذا الحوار الطويل الذي يديره الجاحظ مع قارئ مفترَض، لونًا من السيرة التأليفية للجاحظ، حيث يستعرض مؤلفاته ويتحدّث عن أصدائها، ويذكر في ثنايا الحوار أسماء كتبه التي تحوي أبعادًا معرفية وفكرية واسعة ومتنوّعة. ↑

2. الهُجَناء: أبناء الإماء والجواري. ↑

3. الحَميّة: الغضب الشديد. ↑

4. البِدَدة: جمع بُدّ وهو الصَّنم. ↑

5. الأوفاق: علم جامع لأسرار الطبائع والحروف والأعداد. ↑

6. ترقيح المال: إصلاحه والقيام عليه. ↑

7. مَثَلٌ يعني: بدء الكبير من الصّغير. ↑

8. الرّيِّض: المبتدئ في طلب العلم. ↑

9. الإرب: المهارة والحذق. ↑

10. الغبّ: العاقبة ↑

11. يقال نصب لفلان نصبًا: إذا قصده وعاداه، ويشير الجاحظ في هذه الفقرة إلى فِرَق إسلامية متعددة وإلى الخلاف بينها في مسألة الإمامة. ↑

12. النفج: أنْ يفتخر مما ليس له. ↑

13. السِّمع: ولد الذئب من الضّبع. ↑

14. الوَرَل: دابَّة على خلقة الضبّ إلّا أنه أعظم منه. ↑

15. الفاختة: نوع من الحمام المُطوّق. ↑

16. الذَّرْء: النَّسل. ↑

17. الطروقة: الأنثى التي بَلَغت الضِّراب. ↑

18. السّفاد: المواقعة بين الذّكر والأنثى. ↑

19. الطفرة: مسألة كلامية تنسب إلى إبراهيم النّظّام، وهي قوله: إنّ المار على سطح الجسم يسير من مكان إلى مكان بينهما أماكن لم يقطعها هذا المار، ولا مرّ عليها، ولا حاذاها، ولا حل فيها. ↑

20. التولد: مبحث كلامي، وذلك أنهما اختلفوا فيمن رمى سهمًا فجرح به إنسانًا، أو غيره، وفي حرق النار، وتبريد الثلج، وسائر الآثار الظاهرة من الجمادات. ↑

21. المداخلة: مقالة كلامية لقوم زعموا أنّ الألوان، والطعوم، والروائح، والأصوات والخواطر، أجسام، تتداخل في حيز واحد. ↑

22. الغرائز: أي الطبائع الموجودة في الأشياء، كالحرّ للنار، والبرد للثلج. ↑

23. التماس أو المجاورة. باب من الكلام، يبحث في اتّصال الأجسام بعضها ببعض، كالماء باللبن، والدقيق بالماء، والزيت بالخَلّ. ↑

24. المستميح: طالب العرف. واستراثه: استبطأه. ↑

25. البجح مُحرّكة: الفرح. ↑

26. المصقع: البليغ الماهر. ↑

27. بضم الخاء معناها الخمر، وبفتحها معناها الحصيرة الصغيرة من السعف، ولكلٍّ وجه. ↑

28. الحازي: صاحب الكهانة في العرب، والعرّاف: الكاهن أو الطبيب، والزاجر: مَن يرمي الطير بحصاة. ↑

29. العضاريط: جمع عضرط كقنفذ: "هو الخادم على طعام بطنه، والأجير، واللئيم". ↑

30. آض: عاد ورجع. ↑

31. غمدان: قصر بين صنعاء وطيوة. ↑

32. المشقر: حصن كان بالبحرين. ↑

33. هو حصن السموءَل بن عادياء اليهودي، مشرف على تيماء، بين الحجاز والشام، على رابية من تراب. ↑

34. مدينة بالجزيرة. ↑

35. ما يُعرف اليوم بصناعة الغزل والنّسيج ↑

36. الطِرْق: معناه هنا القوة. ↑

37. غُمدان: قصر بصنعاء، وكعبة نجران: بيعة بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة، وعظموها مضاهاة للكعبة. ↑

38. قصر مارد: في القصيم بالجزيرة العربية. وشعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع. ↑

39. الأرفاق: جمع رفق بالكسر، وهو ما يستعان به. ↑

40. المَدر: الطين اللزج المتماسك، وهو خلاف أهل الوبر سكان الخيام. ↑

41. الآطام: جمع أطم بضمة وبضمتين وهو القصر، أو الحصن المبني بالحجارة، أو كل بيت مربع مسطح. ↑

42. الشامات خمس: فلسطين ومدينتها بيت المقدس، والأردن ومدينتها طبرية، والغوطة ومدينتها دمشق، وحمص، وقنسرين ومدينتها حلب. ↑

43. ثيفيل: فهو تيوفيل بن توما أحد المترجمينَ لأرسطو. ↑

44. هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ولِيَ الخلافة ثلاثة أشهر. وقد قام بأول ترجمة في الإسلام. ↑

45. المجسطي: كتاب بطليموس. ↑

46. القرسطونات: ضرب من الموازين. ↑

47. الأسرنج: ثاني أُكسيد الرصاص. ↑

48. صبغ معروف، يتخذ من الزئبق والكبريت. ↑

49. هو حجر فيه عيون براقة يتخذ منها خرز. ↑

50. الأنبجات: شجر ثمرته في مثل حبّة اللوز. ↑

51. النحاس الأصفر ↑

52. الداذي: حبّ يوضع في النّبيذ حتى يصبح مُسكرًا. ↑

53. زرى عليه كأزرى: عابه، والأول أكثر. ↑

54. التبين: التعرف والتحقق. ↑

55. الحمام الهَدِي: الذي يحمل الأخبار إلى الأماكن البعيدة ويعود بالأجوبة. وبُرُدًا: جمع بريد. ↑

56. مصدر نادمه. بمعنى جالسه. ↑

57. الجلندى: اسم ملك عُمان. ↑

58. الإثارة هنا بمعنى الحرث. ↑

59. أسجل له الأمر: أطلقه. وأوغر الملك الرجل الأرض: جعلها له من غير خراج. ↑

60. الأكار: هنا بمعنى الخبير من المخابرة (والمخابرة أن يزرع الرجل أرض غيره، على أنْ يكون له النصف ونحوه مما تغلّ الأرض). ↑

61. آلاته: بمعنى أسبابه. ↑

62. الركاز بمعنى الكنز. ↑

Table of Contents